١٠٠ يوم

فى أحراش أفريقيا

بقلم
حامد سليمان



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩١

الاخراج الفنى : عمر حماد

الرحلة : بعدسة محمد سعيد

الاهــــداء

الى الأســـتاذ صــلاح حافظ

رئيس تحرير آخر ساعة السابق ٠

والأســـتاذ محمد غانم

الرئيس السابق لمجلس ادارة شـركة النصــر للتصـــدير والاستيراد ٠

فلولا تشجيع الأول ٠٠ ومســاعدة الثـانى ٠٠
لـــا قدر لهذا الكتاب أن يرى النور ٠

ح٠س

المقدمة

فى مهمة صحفية لافريقيا .. استغرقت ستة أشهر .. لم يكن مقدرا لى .. الا زيارة مدنها .. ومؤسساتها ولكن قدماى .. ساقتنى الى ادغالها .. لكتابة سلسلة من التحقيقات السياسية .. تسجل فترة التحول الهائل فى حيـاة القارة .. من مرحلة العبودية والاحتلال .. الى مرحلة الحرية والاستقلال .. ولكن حاستى الصحفية .. دفعتنى دون أن أدرى الى أدغال القـارة وأحراشها وفى هذه الأحراش الموغلة فى بدائيتها وفطرتها .. فى جنوب السودان .

رأيت « عراة »

وحضرت حفلا لتكريم « فتاة » حامل فى برازفيل .. والتقيت بملك .. ترفض رعيته أن يموت .. الا على يد زوجاته !!

وهربت من بوليس الكونغو .. بعد اعتقال سريع .. ساقنى اليه برقية من رئيس التحرير ..

وزرت وكر ساحر يطحن « أمخاخ » الأطفال .. لاستخلاص مادة السحر الأسود القاتلة ..

واذهلني ثعبان عملاق .. داست عليه عجلات سيارتي الأربع ومضى يواصل طريقه في الغابة .. دون أن يلوي على شيء ..

وهاجمني طابور من النمل المتوحش في انجولا .. متخصص في قتل الأفيال و ... و ...

عايشت أهوالا .. وغرائب .. ومفاجآت .. كنت في غنى عنهـا ..

حيث كانت مهمتي محددة في « رصد » التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. التي حدثت لشعوب افريقيا .. بعد حصولها على الاستقلال .. وهي مهمة ـ كما ترى ـ قشيبة ومريحة .. ولا تستدعي سوى بعض اللقاءات مع رؤساء جمهوريات وحكومات هذه الدول .. في حجراتهم المريحة المكيفة .. مع بعض اللقاءات الأخرى .. في الشارع الافريقي ..

ولكن قاتل الله الفضول الصحفي ..

فخلال « سويعات » الراحة .. كنت لا أسمع عن ظاهرة مثيرة .. أو شخصية غريبة الأطوار .. أو مكان تحيط به أسرار .. الا وشددت الرحال اليه .. مهما تكلفت من جهد ..

كان هذا الفضول يسبقني الى « المكان » .. فأنسى ما يحتاج اليه الانتقال من « زمن » .. أو حجم ما ينتظرني فيه من خطر .. فلا استريح حتى أجد نفسي هناك .. وسط العديد من الأماكن الموحشة .. والمشاهد المذهلة .. والمواقف الحرجة ..

وما ستقرأه ـ بعد قليل ـ بين صفحات هذا الكتاب .. من مشاهد .. ومواقف .. وقصص انما يدين ـ وقبل كل شيء ـ لهذا الفضول اللعين .. الذي يلازم كل صحفي ولا يتركه .. حتى آخر لحظة من عمره ..

حامد سليمان

المشهد رقم (١)

عراة فى جنوب السودان

* فى مدينة « واو » عاصمة المديرية الاستوائية من جنوب السودان .. كنت مستلقيا على سريرى .. فى احدى استراحات الجيش السودانى فى محاولة لالتقاط الأنفاس .. بعد مغامرة صحفية حاولت خلالها تغطية احدى معارك الجيش مع متمردي جنوب السودان .. عندما جاءنى مرافقى السودانى ـ محمد مدنى ـ ليعرض على الاستعداد لمرافقته فى رحلة صيد فى الأحراش ..

ودون تردد حاولت الاعتذار .. فلم تكن من مهام رحلتى تغطية مثل هذه الموضوعات الروتينية .. علاوة على أننى كنت استعد للسفر فى اليوم التالى لأوغندا ..

ولكنه استطاع أن يغير رأيى بعد قليل عندما قال :

ـ أنت حر •• ولكن لا توجه لى أى لوم •• اذا أخبرك العائدون من الرحلة أنه قد فاتك نصف عمرك •• كما تقولون فى مصر ••

قالها •• وأسرع بالخروج من الحجرة بعد أن لمعت عيناه بنظرة ذات مغزى •• وانفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة ماكرة ••

وفى دقائق •• وجدت نفسى أسبق حقيبتى الى سيارة القافلة ••

***

مضت السيارة فى طريق ملتو بين أحراش السافانا السودانية •• تسرع حينا لتلهث وراء نمر فاجأته الطلقات •• وتبطىء حينا لتوجه حرابها الجبانة الى فيل صغير •• وتتوقف حينا •• فى يأس ورتابة بعد أن تنبهت الحيوانات المفترسة وغير المفترسة •• وفزعت الى قلب الغابة تختفى وراء أشجارها الكثيفة ••

وخلال الرحلة كان مرافقى يبادلنى نظراته الماكرة •• دون أن يرد على سؤال حبيس على طرف لسانى ـ ولكن أين ذلك الشيء المثير الذى (لدغت) به فضولى •• ودون أن يتكلم كانت شفتاه تنطق :

ـ انتظر وسترى ..

وفجـأة .. رأيت ما لم أره سـوى فى أكثر الأحـلام والكوابيس .. غرابة واثارة ..

مجموعة من الرعاة طوال القامة .. تسبقهم عدة مئات من البقر .. النساء يحملن على رءوسهم عيدانا من حطب الشجر .. والرجال يمسكون ببعض العصى الغليظـة .. ووراءهم بعض الصبية والأطفال .. والجميع بلا استثناء عراة .. كما ولدتهم أمهاتهم ..

لم أصدق فى أول الأمر .. كان سواد بشرة الجميع يخدع بصرى أحيانا .. ولكننى اكتشفت ـ بعد اقترابهم ـ أننى كنت أحاول خداع نفسى لفرط الصدمة ..

* ولست أدرى ..

لمـاذا فاقت دهشتى رؤية رجال عراة .. أكثر من رؤيتـه بين النساء والأطفال ربما لأن براءة الطفل قادرة دائما على ستر عورته .. ربما لأننى سمعت عن حفلات « الاستربتيز » التى تتخلى فيها بعض نساء أوربا .. حتى عن ورقة التوت .. فى بعض الحفلات الماجنة ..

ربما لأن النساء الذين شـاهدتهم كانوا يغطون نصفهم الأسفل ببعض أوراق الشجر .. رغم صدورهم العارية تماما ..

ولكن رؤية رجل عار تماما •• يمشى فى الطرق العامة ••
بين مراعى السافانا •• دون أن يشعر بأى خجل •• يتكلم ••
ويضحك •• ويركض وراء البقر •• ودون أن يشعر أنه عـار
تمامـا •• فاق فى ذهنى كل ما أمتلكه من صـور الخيال ••
بقدر ما أثار فى أعماقى كل ما أمتلكه من مشاعر الشفقة ••

و ••••

لم تستطع عيناى متابعة المزيد •• من هـذا العرض المروع
الذى كاد أن يغتال داخلى كل ما قرأته عن الفطرة والبراءة ••
وكل ما عرفته عن المقدسات والمحرمات ••

ولم أجد فى نفسى القدرة على طرح سـؤال واحد على
مرافقى الجنوبى فى الرحـلة •• رغم عشرات الأسـئلة التى
انحشرت فى حنجرتى••وكل ما طلبته من الجميع أن يسرعوا بى
فى العودة •• حتى أسـتطيع أن (ألملم) أطراف مشـاعرى
وهواجسى ••

وفى طريق العودة •• سمعت العديد من الاجابـات التى
سبقت أسئلتى •• بعضها يصف الظـاهرة •• وبعضها يعتذر
عنها •• وبعضها يبررها ••

※ قالوا : ان هذه البقعة ليست فقط أكثر مناطق السودان
تخلفا •• ولكنها أكثر مناطق العالم بدائية •• وانعزالا •• وان

ما حدث بها •• كان جزءا من استراتيجيـة الانجليز فى عزل الجنوب عن الشمال ••

* وقالوا ان حرارة الجو الشديدة •• هى التى دفعت سكان هـذه المنطقة •• الى عدم احتمال أى شىء •• يلتصق بأجسامهم وبسرور القرون •• أصبح العرى جزءا من حيـاتهم العاديـة ••

* رغم انه لا قيود على الجنس •• فقد تسبب هـذا العرى •• فى اصابة معظم رجالهم ـ ونسائهم ـ بالبرود •• وان العريس يعـانى ليلة الزفاف من هذا المرض •• ويستعان على ذلك بالسحرة وبطقوس عنيفة من الرقص والاغراء من جانب العروس •• حتى يستطيع الرجل •• أن يصـل الى الوضـع الطبيعى الذى يمكنه من الانجاب •• اذ ماذا يثيره فى المرأة •• وفى فتاته وهى عارية باستمرار أمامه •• ومنذ مولده ••

و •• لم أجد فى نفسى رغبة فى ان استمع للمزيد ••

بقدر ما دفعتنى •• هذه المشاهد التى رأيتها بعينى •• وهذه الغرائب التى سمعتها •• الى معرفة الأسباب التى تختفى وراءها هذه الظاهرة الموغلة • فى الاثارة والغرابة والدهشة ••

* ووجدت نفسى اتساءل :

لمـاذا ؟

لمـــاذا بقى هذا الجزء من السودان هكذا ؟

ــ لمـــاذا بقى هذا الجزء من العالم •• يرزح تحت عبء هذه الحياة الموغلة فى البدائية والعرى ••

((جريمـــة بشريـــة))

والجواب ••

باختصار وبدون الغرق فى التفاصيل ••

لأن الانجليز أرادوا ذالك •• لقد وجدوا ان الشـــمال •• مرتبط ــ لا محالة ــ بحكم روابطه الدينية واللغوية ــ بالعالم العربى •• كما لاحظوا أن المد الشمالى الحضـــارى يمكن أن يتسع بين الجنوبيين ••

الاسلام كان ينتشر فى سهولة عن طريق التجـــار وكذلك اللغة العربية •• فتعاليم الاسلام تجد استجابة بين زنوج الجنوب لانها لا تفرق بين أبيض وأسود •• واللغـــة العربية هى لغـــة هذا الدين •• وقد لاحظ الانجليز أن الشعوب العربية التى خضعت لهم •• لم تندمج معهم حضاريا كما حدث لمعظم الدول الافريقية وغير الافريقية فالمصريون والعرب •• لهم حضـــارتهم

وثقافاتهم ولغتهم العريضة •• وخاف الانجليز أن يمتد هـذا « التمرد الحضارى » الى هذه المنطقة ••

ووضعت الخطة لوقف هذا المد الشمالى الحضارى حتى السيطرة الانجليزية التى تريد أن يظل الجنوب تابعـا لها •• وساعدهم على ذلك أن معظم قبائل الجنوب ذات حضـارات بدائية يمكن السيطرة عليها وطبعها بالطابع الذى يريدونه ••

ووضعت الخطة لفصل هـذا « الكيان القبائلى » البدائى الجنوبى عن الشمالى ••

وليت الأمر توقف عند ذلك •• كان فى الامكان فصـل هذا الجزء الجنوبى •• وتطويره •• وطبعه بالطابع الاوربى •• ولكن لانهم بعمليـة حسابية « غير مخلصة » وجدوا ان هـذا سيستغرق منهم الكثير من الجهد والمـال لشدة تأخر الجنوبيين، ولسكناهم فى مناطق يصعب الوصـول اليها •• فقرروا ايقاف عقارب الزمن فى هـذا الجزء من العالم •• وتركهم على ما هم عليه •• وفى هـذا وحده خلق « الكيان المتخلف » عن الشمال المتحضر •• وبمـا ان هـذا يتفق مع الهـدف الانفصـالى فلا داعى ــ اذن ــ للتكاليف ••

ولاحـكام الخطة فقد فرضوا ذلك الحـاجز المنيع بين الشمال والجنوب حتى لا تتم أى حركة « تعريب » فى الجنوب

أو « أسـلمة » عن طريق التعـليم على المنهج الغربى والدين الاسلامى والتجـارة والهجرة وتبادل الموظفين بين الشـمال والجنوب ..

وفى الوقت ذاته أطلقوا العنان لهيئات تبشيرية مشبوهـة لنشر اللغة الانجليزية والدين المسيحى بينهم مع التركيز — بين الدروس — على بث سموم الكراهية بين أطفال الارساليات ضد الشماليين وتجسيم الفروق بين الطرفين لتضخيم الشعور بالكيان المنفصـل ..

وهنا فرضت الهيئـات التبشيريـة نفسها كأقوى وأنسب « برفان » لتنفيذ تلك السياسة ونجاحها .. فكانت العـلاقة بينها وبين السلطات الانجليزية الحاكمة مباشرة ومتينة وأغدقت عليها هذه السلطات الأموال لتعمل فى ميادين التعليم والصحة والنشاطات الاجتماعية فصـادفت نجاحا هائـلا ، ونالت ثقة المواطنين البسطاء فى الجنوب ، واسـتولى العاملون بها على عطفهم وحبهم ، ومما ساعد على ذلك أن الحكومات المتعاقبـة كانت تسير فى أغلب الأحيان فى الطريق الذى ترسمه لهم هذه الارساليات .

وهكذا تضافرت كل هذه العوامل .. وتخمرت كل هذه العناصر لخلق هـذا الكيان المختلف فى جنوب السودان .. وخرج الانجليز وخلفوا وراءهم هذه التركة المثقلة .. المتمثلة فى هذا الجزء المتخلف الذى يطل نحو الشـمال بعيون يملؤهـا

الشك •• وبعواطف تغمرها الكراهيـــة •• وبولاء بعضه مندفع نحو جهات أجنبية مما أدى فى النهاية الى احداث الانفصال •• التى بدأت بتمرد بعض ضـباط وعســاكر الجيش والبوليس الجنوبيين ، وانقضاضهم المفاجىء على مدينة « جوبا » عام ٥٠ على الشـــماليين لتشهد المدينة ومن بعدهـا كل مدن وقرى الجنوبيين مذابح رهيبة ما زالت آثارها موجودة حتى الآن •• على يد منظمات التمرد بدء بـ « أنانيا » واحد •• وانتهاء بجيش جون جارانج الذى مازال يثير الرعب فى الجنوب والشمال •

« من هم الجنوبيون »

والآن •• نعود لسؤالنا :

ولكن من هم الجنوبيون ، من هم هؤلاء المتمردون ، من أين جاءوا •• وما هى أهم قبائلهم •• وما هى أغرب عقائدهم وعاداتهم •• وهل هم ــ حقا ــ عنصر مختلف عن الشمال ••

والواقع انه لا يعرف على وجه التحديد كيف استوطنت هذه القبائل مناطقها الراهنة فى الجنوب ••

وكل ما عرف حتى الآن انه قبل ١٥٠٠ سنة قامت جماعات افريقية بتحركات واســعة طلبا للمرعى •• وقامت بين هــذه

الجماعات حروب طاحنة قبل أن تستقر فى أماكنها الحالية ..

وبالنسبة لقبيلة « الشلك » أشهر قبائل الجنوب — فقد تحركت من بحيرات فيكتوريا والبرت وزحفت نحو الشمال لتستقر على النيل حول « ملكال » فى جنوب السودان ..

أما جماعة « الباريا » فقد تحركت من شرق افريقيا ، وشقت طريقها بحد السهام الى أن استقرت فى المنطقة الواقعة ما بين « ياى » و « جوبا » قرب الحدود بين أوغندا والسودان ..

ويأتى بعد ذلك قبائل « الزاندى » قصار القامة الذين نزحوا فى جماعات كبيرة من الكونغو حتى استقروا حول « مريدى » و « أنزاتر » فى جنوب وغرب السودان ..

وهكذا ، حتى أصبح الجنوب الآن يحوى أكثر من أربعين قبيلة ، أشهرها الشلك والنوير والدنيكيا .. الى جانب السباريا والدنيجا ، مولى ، وأشولى واندوفو وكاكواكوكو وتبوسو ومادى وحور ..

ومعظم هذه القبائل يحكمها اما ملوك أو سلاطين ويأتى بعد الملك أو السلطان الساحر أو « الكوجق » بلغة أهل الجنوب وهو الرجل الذى يسقط المطر ، ويعالج المرضى ويقيم الحفلات الدينية ، ويهابه كل كبير وصغير بما فيهم الملك نفسه ..

والواقع أن حضارة هذه القبائل مختلفة تماما من حيث العنصر واللغـة والعادات والتقاليد عن كل ثقافة وحضـارة الشـمال ..

فالحياة هنا تحت خط عرض عشرة مختلفة جدا جدا ..

فمثلا مكانة الرجل ـ أى رجل ـ فى الجنوب يحددهـا عدد ما يملكه من الأبقار ، فهو يأكل بها ويشرب من لبنها ويحارب بعظامها ويتزوج بتقديم العديد منها لأهل العروس ..

وقد يدفع العريس مائة بقرة مهرا لفتاة أو أكثر .. فاذا عرفنا أن ثمن البقرة فى الجنوب عشرون جنيها فان هـذا يعنى أنه يقدم ٢٠٠ جنيه مهرا للفتاة .. ولكن اذا قسنا ذلك بثمن البقرة فى مصر ، فان هـذا يعنى أن ثمن فتاة الجنوب غـال جدا .. حوالى ٢٠٠ ألف جنيه مثلا ..

ولذلك فان معظم قبـائل الجنـوب يقدسـون البقرة ، ويحبونها ويدللونها ويتغنون بجمالها وتكوين قرونها .. ورشاقة حركتهـا ..

ومكانة البقرة بالنسبة لرجل الجنوب تكاد تفوق مكانة الجاموسة بالنسبة للفلاح المصرى .. كما أن أهميتها لحياته تفوق لديه أهمية المرأة .. أى امرأة ..

« حرية .. وليست اباحية »

والمرأة فى معظم قبائل الجنوب ، تقوم بمعظم أعباء الحياة عدا الحرب .. فهى تدير شئون « القطية » وهى المنزل الذى يعيش فيه معظم الجنوبيين ..

وتشارك الرجل فى أعمال الرعى ، وتقوم وحدها بعملية التسويق والشراء لحاجات البيت ..

ولذلك فهى تتمتع بمجموعة هائلة من الحريات وخاصة فى مسألة الحب والزواج ..

ان عادات بعض القبائل وقيمها الدينية لا تحرم عليها أن تمارس الحب مع من تشاء من شباب القبيلة ، ولكن على الشاب اذا تسبب فى حملها ولم يرغب فى الزواج بها ان يدفع لأهلها من سبع الى عشر بقرات ترضية لها ..أما اذا كان الاتصال بامرأة متزوجة فيجب أن يدفع للزوج ما يطلقون عليه غرامة « كسر البيت » من الأموال والأبقار ..

وللفتاة عادة أن تصادق من تشاء من الفتيان ، ولكن عندما يتقدم شاب لخطبتها فان عليها أن تأخذ رأى أبويها ــ خاصة بين القبائل النيلية ــ لأن ما يدفع لأبيها كمهر من الأبقار

يستخدم فى تزويج واحد من اخوتها الذكور ، وفى حالة فشل الزواج فعلى هذه الأبقار أن تعود مرة أخرى للزوج المطلق ، ومعنى هذا أن على أخيها أن يسترجع هو الآخر أبقاره من أهل زوجته •• ولذلك يجب « التدقيق » فى الاختيار •• فهناك منزلان فى طريقهما للانهيار فى حالة فشل الزواج الأول ••

كل شىء كما ترى •• مختلف جدا ••

« زوجات الأب »

فى احدى القبائل نرى الزواج بين الأقارب غير مسموح بشكل عام •• ولكن الأقارب بالنسب يسمح لهم بذلك •• فالشاب يسمح له بالزواج من زوجة أبيه •• وقد نشأت هذه العادة لأن الشاب فى قبيلة الجنوب ينشأ عادة فى منزل فيه أم واحدة وأكثر من زوجة أب ـ فالأب مسموح له بالزواج بأى عدد يشاء من النساء وبذلك فكل بيت يحوى شبانا كثيرين •• وزوجات أب أكثر •• وقد سمحت القوانين بالزواج بينهم خضوعا لحاجة البيئة •• فمن الذى يرعى كل هذا العدد من زوجات الأب بعد وفاة الأب •• أو مرضه •• أو •• عجزه ••

والأولاد المراهقون ينامــون مع الأبقــار فى مرابطهــا « اللواك » أما •• المراهقات ، فانهن ينمن فى أى منزل خــال كمجموعة لو كان عددهم كبيرا ••

ولا يوجد أى نوع من الحرج فى خروج البنت مع أى صديق من القبيلة تختاره لحفــلات السمر والرقص والغنــاء بل •• ومطارحته الغرام ••

وهذه الصداقات المبكرة تقود عادة للزواج ، أما لو أراد الشاب أن ينفرد تماما بفتاته ، فانه يذهب بها سرا الى مكان بعيد فى الغابة حيث يقضــيان كل الليل •• دون أى تدخــل أو غضب من الآباء ••

نقف هنا لنقول ان الزائر المتعجل لجنوب السودان ـ خاصة من البلاد العربيــة ـ يتسرع فى الحكم على هــذه التصرفات ويصفها بالاستهجان والاباحية •• وهذه الحريات التى تمارســها فتاة جنوب السودان ليست لها أى علاقــة بالاباحية أو الاستهتار من قريب أو بعيد ، فليس فى قوانينهم ولا فى تعاليم عقــائدهم بند واحد يحرم هذه المسائل •• انهم ليسوا مسلمين ولا مسيحيين ولا يهودا •• وانمــا تنبــع قــوانين الخير والشر لديهم •• من احتياجات البيئة نفسها •• ومن معتقداتهم البدائيــة والوثنيــة القديمــة ••

فمثلا الجنوبيون عددهم بشكل عام قليل •• يعيشون فى مساحة شاسعة من الأرض •• تهاجم الامراض الكثيرة أطفالهم

فلا يفلت منهم سوى القليل حتى يقف بجانب والده يساعده فى الرعى .. فلماذا تكون ـ اذن ـ هناك قوانين تحد من الاتصال الجنسى .. وتحد من الزواج .. وتعرقل العلاقات بين الجنسين ..

الجو هناك فى معظم أوقات السنة حار .. والرطوبة عالية جدا ومعنى هذا أن يصبح الجو خانقا .. فلماذا تكون هناك ـ اذن ـ ملابس على الأجساد وهكذا ..

يجب الا ننظر لحياة هذه الفئات من خلال قيمنا ومناخنا وعاداتنا وتعاليم أدياننا .. فهذه « القيم » ليست لديهم أصلا .. ولم تصل لهم وتأثيم هذه « القيم » هو نوع من التشدد يتناقض مع الآية الكريمة « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ..

وهذا لا يعنى الموافقة على استمرار تخلف هذه القبائل الفكرى والحضارى والاجتماعى والثقافى والسياسى .. واذا كان الانجليز قد أوقفوا عقارب التقدم فى هذه المنطقة الى ما قبل مرحلة الصيد لتحقيق هدف محدد وهو فصل الجنوب عن الشمال .. فليس هناك ما يبرر استمرار هذا التخلف فى هذه المنطقة من العالم ..

و .. هذا ما تفعله حكومات السودان منذ الحصول على الاستقلال .. وبالنسبة للكبار فقط .. صدرت الأوامر تحرم على المرأة منهم دخول المدن وهى عارية ..

وبالمناسبة .. بدأت ظاهرة « العرى » فى جنوب السودان تنحسر وتقل .. نظرا لوجود عدد كبير من نساء الشمال فى الجنوب وقد بدأت فتاة الجنوب تقلد أختها فى الشمال وترى فى ارتداء الملابس شيئا جميلا .. وفى كل نواحى الحياة .. تحاول حكومة السودان ازالة تحركات العرى والتخلف ..

« التسامح الدينى »

واهتمت حكومات السودان اهتماما خاصا بالمسألة الدينية فى الجنوب .. فقد استهدفت السودان حملات ظالمة تقول ان هناك محاولات « رسمية » لمحو الدين المسيحى هناك وبالطبع .. كانت هذه دعاية استعمارية مقصودة لزيادة اشعال نيران الانفصال فى قلب المسيحيين الجنوبيين .. فالمعروف ان السودان يؤمن ايمانا مطلقا بحرية العقيدة والعبادة لكل فرد .. وهذا المبدأ منصوص عليه فى دستور البلاد ..

وقد شاهدت بنفسى كيف يمارس المسيحيون فى الجنوب شعائر دينهم فى حرية تامة .. وأى انسان يتجول فى مدن ملكال وجوبا وقراها المجاورة .. يلحظ لأول وهلة أن عدد الكنائس بها يفوق عدد المساجد ..

ففى الجنوب يوجد الآن أكثر من ٨٧ كنيسة يعمل بها أكثر من ١٠٠ قسيس سودانى •• وأكبر دليل على أن الحكومة ساهمت فى خدمة هـذه الكنائس أنها أنشأت معاهد للتدريب الدينى ، كما سهلت اجراءات السفر بالنسبة للطلبة الجنوبيين لتلقى المزيد من الدراسـات الدينية فى علم اللاهوت بالجـامعـات المتخصصـة فى الخـارج لمد الكنائس بحـاجتها المستمرة من القساوسة ••

كل ما هنالك أنها فى عهـد نميرى أخرجت القساوسـة الأجـانب الذين كانـوا يغرسون بذور الكراهيـة فى عقول الجنوبيين بدلا من تعاليم المسيحية ••

ولسد هذا النقص فالحكومة تسمح بقبول أساتذة مؤهلين من البلاد الافريقية والعربية للتدريس بمعاهد الجنوب الدينية••

وهكذا ، بمثل هذه الخطوات الايجابية تحاول الحكومة السودانية •• تدمير بذور الانفصال من أساسه وكذلك تضميد جراحه •• وعلاجه على المدى الطويل والقصـير فى الكبـار والصغار على السواء ••

وكل ما تفعله حكومة السودان بالنسبة للكبار هو تقديم المزيد من الخدمات لهم عن طريق انشـاء عشرات من أحـدث المستشفيات والوحدات الاجتماعية ••

أما بالنسبة للصغار •• فان الحكومة تعمل على تعليمهم

فى مدارس الحكومة ـ بجانب أطفال الشماليين ـ من خلال نفس منهجهم •• حتى تنقل حياة الجنوب من عصر الكهوف الى العصر الحديث ••

ولم يكن أمامها ـ ولها العذر فى ذاك ـ سوى الاتجاه للأطفال فالكبار ـ معظم الكبار وليس كلهم ـ يعيشون فى أدنى مراحل التخلف ، ومن العبث الاتجاه معهم •• ومحاولة ادماجهم تحت أى اطار أو داخل أى صورة من صور الحياة الحديثة •• فما بالك لو حاولت افهامهم مثلا انهم مواطنون يعيشون داخل اطار دولة واحدة •• ووطن واحد •• من مؤامرات الامبريالية العالمية ••

كلمات وتعبيرات تفصلها عن اذهانهم آلاف السنين من التخلف •• ولذلك كان الاتجاه للأطفال •• والمدرسة الأولية •• والمنهج الواحد •• واللغة الواحدة ••

زرت واحدة من هذه المدارس فى مدينة جوبا قبل سيطرة جارانج على مدن الجنوب •• وشاهدت بعينى كيف ينتقل أطفال الجنوب من حياة الغابة •• الى حياة العصر •• وكيف تحدث عملية الادماج بين الجنوب والشمال بلا صعوبة •• وبلا كلام كثير •• وبلا مؤثرات سياسية وبلا أبحاث فى تاريخ الانفصال •• وأسبابه •• كل شىء هنا يمضى فى الطريق الصحيح •• وبلا ضجة ولا افتعال •• والمدرس

هنا هو جندى الادغال المجهول الذى يقوم بأعظم عمل حضارى وسياسى فى نفس الوقت •• انه يغرس بذور الحضارة والوحدة فى صمت •• بعيدا عن المعارك •• وحوادث الارهاب ••

اقتربت من أحد الفصـــول •• كان يحوى حوالى ٤٠ طالبة من جنوب السودان فى المرحلة الاعدادية •• وكان تأثرى بالغا عندما سمعتهن يغنين هذه الأنشودة :

انـــا طالبـــة ســـودانية
أعيش فى الجبهة الاستوائية
أحـــب اللغـــة العربيـــة
فى الكنيســـة الأجنبيـــة
تعـــلمت الانجليزيـــة
علمونى •• ما تنوســـنى
وان غـــلطت ســـامحونى

كانت الأنشودة تخرج من أفواه فتيات الجنوب فى حزن عميق •• تقول مالى •• ومال الانفصال •• وما ذنبى وأنا أتكلم العربية الركيكة •• لقد أرغمونى على تعلم الانجليزيـــة منذ طفولتى فى الارســـاليات •• حتى يصعب تفاهمى معـــكم •• ولكننى ــ فى النهاية سودانية ــ علمونى ما تنسونى فليس لى ذنب فى كل ما يحدث••بل ليس للجنوب كله ذنب فيما حدث•• لا تحكموا على تخلفى وعرى قبيلتى •• قبل أن تعرفوا سبب المأساة التى يعيشها شعبى ••

المشهد رقم (٢)

لقاء مع أغرب ملوك الدنيا

وفى جنوب السـودان التقيت بأغرب ملوك الدنيـا .. وأكثرهم عددا لزوجاته .. وأقلهم معرفة بما يجرى حوله .. وأعظمهم احتراما من رعيتـه .. وأبسطهم منظرا فى مظهـره ومسكنه .. ورغم ذلك فهو ملك ابن ملك ، وله « حقه الآلهى المقدس » فى مملكة صغيرة لا يزيد تعداد سكانها على ١٠٠ ألف نسمة .. غير أن عدد عجائب هذه المملكة يزيد على هذا الرقم بكثير ..

***

حتى نلتقى به كان علينـا أن نركب النيل لمدة يومين فى منطقة المستنقعات الكبرى فى جنوب السودان .. وأن نعرف

ـ مقدما ـ أن هذه المركب قد تواجه ظروفا حرجة •• تتمثل فى أطنان من نبات ورد النيل •• التى تعترض طريقه •• وتهدد المحرك بالتوقف فى أى لحظة •• وفى أى مكان مهجور ••

وحتى نقبل هذه المخاطرة •• فقد كان لابد لنا من دافع قوى يجذبنا الى شراك هـذا المشوار اللعين •• والواقع ان هذا الدافـع كان موجودا •• ويتمثل فى عشرات الأسـاطير والحكايات الخيالية التى سمعناها عنه •• عن ملك الشلوك •• أو « رث » الشلوك •• أو رئيس قبيلة الشلوك •• واحدة من أهم القبائل المنتشرة فى جنوب السودان ••

المركب يمضى ببطء •• وبجانبى شاب متعلم من جنوب السودان ومن قبيلة الشلوك بالذات •• بعد لحظات ضـاع الاحساس « بنشوة » اندفاع المركب على سطح النيل •• فقد بدأ الملل يتسرب الى نفوسنا ويتراكم مع تكرار المناظر الرتيبة حولنا •• لولا أن صاحبى « الشلوكى » بدأ فى الكلام •• أو بمعنى أدق بدأ فى الاجابة على أسئلتى •• وكانت كلهـا تدور حول ملك الشلوك •• وقبيلة الشلوك •• ومن خـلال اجاباته فهمت أشياء كثيرة متناثرة ••

قال مرافقى : لقد جاءت هذه الأسر الشلكاوية تحت قيادة البطل المشهور « نيا كانج » أول ملوكهم •• وكان يسكن فى المـاضى مع ابن أخيه شرق بحيرة فيكتوريا •• فشب بينهما

خلاف وعداء •• اضطره للنزوح الى الشمال حتى وصـل الى موطنه الراهن فى جنوب السودان ••

وفى رحلته الشهيرة هـذه التف حوله الناس ، وساروا تحت قيادته •• كما استطاع بسحره ـ كما تزعم أساطيرهم ـ أن يغير الكثير من الحيوانات التى التقى بها مثل أفراس البحر والتماسيح •• ومختلف الحيوانـات الأخرى •• الى آدميين ليصبحوا أعوانا مخلصين له وليزيد به من قوة شعبه وتعداده(!!)

ومن بين جميع الحيوانات التى تتعامل معها القبيلة •• تحظى الأبقار بمكانة خاصة بل وتقدر ـ كما ذكرت ـ مكانة الرجل الاجتماعية فى القبيلة •• بعدد ما يملكه من الأبقار •• وليس للضـأن أو المـاعز نفس الاحترام والتقـديس الذى يولونه للأبقار ••

ولذلك •• فان مسـئولية حلب هـذه الأبقار لا توكل للنساء •• وانما تقع على عاتق الرجال والصبيان •• « تكريما » لمكانتها فى معتقدات الشلوك ••

وفى كل قرية مكان لمبيت الأبقار خلال الليل •• وعندما تهاجم أسراب الناموس أهـالى القرى توقد النيران « بروث الأبقار » لطرد جماعات الناموس •• وفى الصباح يمسح الرعاة أجسامهم العارية برماد الحريق حتى يمنع عنهم لسعات الناموس فى الليلة التالية ••

حق مقدس

وللملك الشلوك سلطات مطلقة من الناحية الدينية والدنيوية ، وحقه « الالهى » فى وراثة العرش حق ثابت وراثى وشرعى لا ينازعه فيه منازع •• ولهذا « فالشلكاوى » يقدم أقصى فروض الولاء والطاعة والاحترام للملك •• وفى الماضى القديم لم يكن يسمح للملك بخوض المعارك والحروب خوفا على حياته •• فالملك فى عقيدتهم••لا يموت •• ولكن يختفى•• ولذلك يجب الا يخوض الحرب••أو يتعرض للقتل من الأعداء!! ومخاطبة الملك لها اتيكيت خاص •• وحتى أبناؤه يجلسون القرفصاء عندما يدخلون عليه قبل أن يتفوهوا بكلمة واحدة •• وعندما يهمون بالحديث يغطون أسفل الوجه باليد اليسرى ويديرون رءوسهم نحو اليمين ولا ينظرون اليه مباشرة ••

وقد ذكرت لى أرملة أحد الملوك الكبار بأنها كانت تقدم الأكل لمليكها وهى باركة على ركبتيها ، وعندما تضعه أمامه تتراجع بسرعة الى الوراء •• وهى تحبو على ركبتيها لتجلس بعيدا عنه مديرة وجهها ناحية اليمين •• تجلس ثم تكشف له عن ساقيها حتى ينتهى الملك من طعامه ثم تقوم لتغسل له يديه ••

لا زواج لبنات الملك

وفى حوار مع ابنة الملك التى تصادف سفرها معنا على نفس المركب .. ذكرت لى عن ملك الشلوك .. حقائق أغرب من الخيال .. فالملك لا يتزوج من بنات العائلة حيث تربطه بهن صلة دم بل يتزوج ــ عكس معظم القبائل البدائية ــ من بنات الشعب ، وكذلك يفعل كل رجال العائلة المالكة !!

والملك بخلاف عامة الشعب لا يحترم الحماه ولا يتفادى مقابلتها كما يفعلون ، بل يعاملها معاملة الأخريات .. أما الشلكاوى العادى فانه يبالغ فى احترامها لدرجة أنه لا يجلس معها فى منزل واحد .. ولا يستطيع أن يأكل معها وعليه اذا التقى بها فى الشارع أن يترك لها هذا الشارع ويهرب فى منعطف أو يختفى وراء شجرة ..

* ولنرجع مرة أخرى الى العائلة المالكة ..

ان للملك عدة زوجات قد يصلن الى السبعين زوجة .. ولكن على هؤلاء الزوجات جميعا أن يخضعن « للقديمة » .. أى الأولى زوجات الملك .. ووظيفة هذه القديمة ــ بصفتها أكبرهن سنا وأقدمهن معاشرة له ــ أن ترشد الزوجات الجديدات الصغيرات الى ما يحبه الملك وما يكرهه من المآكل

والمشرب و .. الجنس وتعامل هذه الزوجة باحترام شـديد من الجميع حتى من الملك ..

* أما بنات الملك .. فان أمرهن يثير الدهشة ..

لقد سبق أن قلنا ان بنات الملك لا يتزوجن من العائلة المالكة ، اذ أن رجال العائلة لا يتزوجون من القريبات بصلة الدم ..

وبنات الملك ــ فوق هذا ــ محرم عليهن الزواج من عامة الشعب .. كرجال العائلة المالكة .. حتى لا يمزجن الدم الملكى بدم السوقة .. اذن فمن يتزوجن .

قانون العائلة يحرم على بنات الملك الزواج على الاطلاق.. ربما هذا القانون آخذ فى التغيير الآن مع التطور ولكن هذا هو قانون السلوك حتى الآن .. ولذلك من الطبيعى ــ ازاء هذا القانون ــ أن يسمح لبنات الملك باختيار من يشأن من العشاق ، وحتى لو كان هذا العشيق أخا لها من العائلة المالكة .. على شرط أن يكون هذا الأخ من زوجة أخرى ..

وبالطبع قد نجد هذا غريبا بالنسبة لتقاليدنا وقيمنا الدينية .. ولكن قد تزول دهشتنا تماما اذا عرفنا أن هؤلاء لا يتبعون أى دين سماوى .. وأنهم من عباد أرواح الاسلاف وخاصة .. أجدادهم العظام ..

اذن فمسألة الزواج بين الأقارب فى العائلة المالكة ـ كما قلنا ـ غير مسموح به .. ولكن سنجد انه مسموح به فى حالة القرابة بالنسب ..

فمثلا الأرامل من زوجات الأب يمكن أن يتزوجن من أبناء الملك من زوجات أخريات .. كما يسمح أيضا ـ فى عرف القبيلة ـ للأبناء بمصاحبة زوجات الأب .. وفى هذه الحالة تختار زوجة الأب لمخاطبة الابن الذى يصاحبها الألفاظ التى تشير الى انه زوجها المقبل ..

*هذا بالنسبة للكبار ..

أما الشباب فان لهم عالما مختلفا ..

فالمراهقون من أبناء القبيلة ينامون مع الأبقار فى مرابطها « اللواك » أما المراهقات فانهن ينمن كمجموعة فى أى منزل خال ..

وتخرج كل بنت مع صديقها للسمر والرقص والغناء ومطارحة الغرام .. وهذه الصداقات المبتكرة تقود عادة الى الزواج مستقبلا ..

أما اذا أراد الشاب أن ينفرد تماما بفتاته فانه يذهب بها سرا الى مكان بعيد فى الغابة حيث يمضيان الليل كله .. وعادة لا يتدخل الآباء فى مثل هذه الحالات .. ولا يشعرون أن هناك شيئا ـ غير عادى ـ قد حدث ..

وازاء هذه الحرية •• فان الفتاة هناك تغير من عشاقها ••
حتى تعثر على الشاب المناسب •• ولا يعتبر هذا عيبا فيها الا اذا
اتخذت من هذه المسألة « عادة مستديمة » وأكثرت من تغيير
عشاقها ••

فاذا بلغت الفتاة رقم عشرة من عدد العشاقها سميت
« نياوى كوان » أى فتاة متقلبة ومتهورة — فقط متهورة —
هذا كل ما تتهم به لا أكثر فلا يوجد بين « صحائف » أساطيرهم
الموروثة •• ما يحرم مثل هذه العلاقات ••

والخطبة تحدث فى القبيلة فى وقت مبكر جدا •• ولكن
هذا الارتباط المبكر عرضة للفسخ •• وللفتاة الحق فى الغاء
خطبتها عندما تصل الى سن الزواج ••

والرأى العام فى القبيلة ناضج جدا •• من هذه الناحية••
فهو يحتقر ويدين الفتاة التى تختار زوجا غير مناسب لمجرد
ثرائه وامتلاكه عددا من الأبقار •• بل ان الفتاة — فى نظرهم —
يجب أن تتزوج من تحب ومن له قيمة وفى السن المناسب لها••

* المهم ••

انه عندما يتم الاتفاق النهائى — بين الشاب والفتاة طبعا —
يذهب العريس للأب للاتفاق على الزواج والمهر وعدد الأبقار
الذى سيعطيها للأب •• وفى ذلك اليوم يذبح الأب شاة للعريس

وصحبه .. ويقطع جزءا من أذنها ويربطه على ساق الخطيبة .. وبعد ذلك يتلو صـــلاة قصير تقربا لروح الجد الأكبر نيا كانج..

ثم .. تبــدأ بعد ذلك رحـــلة الزواج .. وتكتب أولى صفحات قصة جديدة لأسرة « شلوكية » جديدة .

سأهرب من زوجاتى

وصلنا أخيرا بعد رحلة مرهقة الى قرية « كودوك » مقر « الرث » أو ملك الشلوك .. قصر الملك على هيئة فيلا بسيطة على مرتفع بعيدا عن مساكن كل أهـــالى القبيلة .. الفيلا بهـــا سلاطين القبيلة وأعوان الملك .. وهو جالس فى نهاية صـــالة واسعة .. على كرسى متواضع جدا .. ولكنه مرتفع .. وبعد الترحيب بنا .. أخذنا الملك لمـــائدة الأكل مباشرة بحجة اننـــا لم نأكل شـــيئا طوال الطريق .. بعد اللقمـــة الأولى رفض محمد سعيد ــ زميلى المصور ــ أن يواصل الأكل خوفا على حياته .. فقد كان الأكل كله له طعم غريب جدا ومثير للغثيان .. دفعنى الجوع للاستمرار فى الأكل وليحدث ما يحدث .. الكل يأكل فى اندفـــاع غريب .. المـــائدة بسيطة جدا .. والأكل أبسط .. والأيادى كثيرة .. تمتد فى نهم .. و « تلغوص »

ثم تعود الأصـابع العارية الى الأفواه •• وهذه « اللغوصة » كانت بسبب أن الطبق الرئيسى كان يشبه « فتة ملوخية » •• ولكن من نبات له طعم « زيت الخروع » •• وبعض اللحوم النيئة •• التى تحتـاج لأنياب أسد جائع لافتراسها ••

وبدأ الحديث بينى وبين الملك متقطعا •• فقد كان محمد سعيد يشير من حين الآخر على بطنه الخاوية •• مشيرا الى أنه جائع ومضرب عن الطعام •• بسبب هذه « الأصناف » المثيرة للغثيان التى قدمت لنا •• ولكن كان لابد من الاستمرار ••

* قلت للملك :

ـ من هو الاهـكم ؟

فقال فى صوت كالرعد :

ـ نيا كانج ••

ـ أين مكانه ؟

ـ فى السماء ••

ـ ولكن من هو ؟

ـ انه أرواح أجدادنا المجسدة فى الحيوانات المقدسة ••

ـ وما هى حيواناتكم المقدسة ؟

ـ فرس البحر والتماسيح والنعام ••

ـ ماذا تحرم الهتكم • ؟

وبدا كأنه لم يفهم سؤالى •• وحاولت أن افهمه ماذا يعنى الحرام والحلال عندنا ••

فقـال :

ــ لا شيء محرم عندنا ••

ــ لا شيء على الاطلاق ••

وعاد يتذكر •• ثم قال :

ــ شيء واحـد •• تذكرت انه الاقتراب المحـرم من أمهاتنا •• أما بعد ذلك فكل شيء حلال ••

ــ سمعت أن لك عددا كثيرا من الزوجات ••

ــ حوالى سبعين ••

ــ سبعين ؟ كيف يمكنك ان ترضى هذا العدد ؟

ومرة أخرى بدا كأنه لا يفهم كلام المترجم •• الذى كنت أسأله بالانجليزية ويكلمه بلغته البدائية •• ويبدو أنه أخيرا فهم قصدى بالضبط •• فأخذ يقهقه فى ضحكة مجلجلة •• قائلا فى لهجة لا تخلو من الفخر والثقة :

ــ اننى متأكد انهن جميعا راضيات •• فليس فى مقدور كل فتاة أن تصبح زوجة لى •• زوجة للملك ••

ــ وبناتك •• هل صحيح انه محرم عليهن الزواج تماما ؟

ـ المفروض ان هـذا هو قانون العائلة المالكة •• ولكنه يتغير ببطء •• وأنا شخصيا لا مانع عندى من تزويج بناتى من الشاب الذى اعتقد أنه مناسب •

ـ اذا تقدمت لاحـدى بناتك فهل تقبل ؟ وهل تسمح قوانينكم ؟

ـ اننى اعتقد انك انسان مناسب •• وعلى هذا الأساس فأنا موافق ••

وكانت كارثة ••

عندما اكتشفت أن الرجـل فهم سـؤالى على انه عرض للزواج •• وبعد مناقشة طويلة افهمته اننى متزوج •• ففوجئت به يسأل :

ـ ألا يمكنكم هناك الزواج بأكثر من واحدة ؟

ـ لنا أربـع ••

وسمعته يردد معبرا عن عميق رثائه :

ـ أربع فقط •• !!

وحاولت أن أخرج من هذا الموضـوع فأثرت له نقطـة أعرف أنها تثيره :

ـ هل من حق الملك أن يحارب ؟

ـ لا ..

ـ لمـــاذا ؟

ـ لانه ليس من حق الملك أن يعرض نفسه للموت ..

ـ وهل من حق الملك أن يمرض ؟

ـ لا ..

ـ لمـــاذا ؟

ـ لانه ليس من حقه ـ كما قلت ـ أن يموت ..

ـ ولكن كيف يمنع نفسه من المرض ؟

انهم يفهمون المرض على انه نوع من الضعف .. والملك لابد أن يكون قويـــا .. ولذلك فعنـــدما يمرض الملك فـــان زوجاته ـ قبل أن يموت ـ يدخلن عليه الحجرة فجـــأة ويقمن بخنقه حتى يتم اختيـــار ملك غيره .. ملك قوى .. ملك غير مريض ..

قلت مندهشا :

ـ ولكن ماذا ستفعل اذا داهمك المرض ؟

ورد على الفور :

ـ سأهرب الى آخر الديار ..

قـــلت :

ـ أين ؟

قــالَ :

ــ الى الخرطوم طبعا ..

و .. انتهى لقائى مع أغرب ملك فى الدنيا ..

***

وجاءت مفاجأة هذا اللقاء المثير .. فى آخر اللقاء .. عندما صحبنى « الملك » بنفسه الى المركب .. وقال لى مقدما احدى بناتــه :

ان ابنتى ستصحبك على نفس المركب الى « مالاكال » ومنها الى الخرطوم .. فاذا أردت أن تتزوجها فاصحبها معك الى مصر ..

وقلت له مجاملا .. ان هذا شرف لى ..

و ...

حاولت ألا ألتقى بهــا طوال رحلتى على المركب وعندما التقيت بها فى الطائرة العائدة بى الى الخرطوم .. قالت لى بعد حوار قصير ..

أن والدى كان جادا فى كلامه .. ولكننى الآن أواصــل تعليمى الجامعى فى الخرطوم .. وأعرف أن تقاليدكم تختلف ..

و .. افترقنا فى مطار الخرطوم ..

وهكذا انتهت رحــلتى الى ملك الشــلوك على وعــد بلقاء ــ لم يتم ــ فى القاهرة ..

المشهد رقم (٣)

السحر الأسود

في نهاية حفل صاخب ومرعب .. في لاجوس عاصمة نيجيريا .. لم أشاهد خلاله سوى وجوه بشعة .. تتوارى وراء « أقنعة » أكثر بشاعة .. سألت رفيقي النيجيري « ماريام هودنجا » .. — ولكن لماذا كل هذه السيوف الضخمة — والتي تشبه سيوف فرسان العصور الوسطى..ولماذا يتبارزون بهذا العنف .. ورد علي باقتضاب وكأنه يعتذر :

— انها عادات قديمة ..

وقلت :

— ولكن لماذا يلوحون بها في الهواء ؟

فقال :

ـ لطرد الأرواح الشريرة ..

ـ وهل يعتقدون بوجود أرواح شريرة ؟

ـ ان بعض القبائل هنا تؤمن بعبادة أرواح الأسلاف .. وهم يعتقدون ان هذه الحفلات الصاخبة .. بما تحويها .. من صخب .. وعنف ورقص .. وطبول تساهم فى طرد الأرواح الشريرة .. حتى تعيش أرواح أسلافهم فى سلام ..

* وسكت « هودنجا » قليلا ثم استطرد :

ـ والادهى من ذلك انهم أحيانا يعتقدون أن هذه الأرواح تسكن أحيانا بعض الأشخاص الذين يعيشون حولهم.. وهم يسرعون بشتى الطرق للتخلص من هذه الأرواح .. فان فشلوا .. حاولوا التخلص من الأشخاص أنفسهم !!

وسألته وقد بدأ كلامه يرعبنى :

ـ كيف ؟

وقال « هودنجا » :

ـ فى الحالة الأولى يستعينون ببعض السحرة العاديين الذين يقيمون لهم بعض الحفلات الصاخبة .. فى محاولة لطرد هذه الروح الشريرة .. من « المريض » المسكون .. لانه فى نظرهم شخص « ملعون » ..

ــ واذا فشلوا ؟

ــ استعانوا بنوع آخر من السحرة •• يزاولون نوعــا (محرما) من السحر يعرف بالسحر الأسود •• وهؤلاء •• يتخلصون من الشخص الذى تسكنــه الروح الشريرة •• عن طريق مسحوق خاص •• لا يعرف أسراره •• سوى هؤلاء السحرة •• الذين توارثوا هذه المهنــة اللعينة عن أجدادهم منذ قرون ••

ــ ولكن لمــاذا أسموه « السحر الأسود » ؟

ــ لانه نشأ فى أحراش افريقيا •• وانطلق من خــلال معتقداتها الغارقة فى « البدائية » و « الوحشية » •• والأوربيون هم الذين أطلقوا كلمة (الأسود) على هــذا السحر لانهم يصمون كل ما هو افريقى بالسواد ••

ــ ولمــاذا هو محرم الآن ؟

ــ المحرم ليس السحر نفسه •• ولكن ذلك « المسحوق المرعب » الذى يستخدمونه ••

ــ لمــاذا ؟

ــ لانه باختصار مصنوع من عصارة مجففة من أمخاخ الأطفــال !!

وعند هــذا لاحظ « هودنجا » اننى وصــلت الى ذروة

الفضول الذى يتفجر بالفزع والغضب معا .. وشعر أن آلافا من الأسئلة تزدحم فى رهبة وغيظ على طرف لسانى ..

فقال لى .. أنا أعرف ما يدور فى ذهنك من أسئلة .. ولم يمر صحفى من هنا الا وامطرنى بوابل منها .. ولكن لحسن حظى ـ وحظك ـ أن البوليس قبض اليوم فى ضاحية من ضواحى لاجوس على « وكر لعين » لاستخلاص هذا المسحوق المرعب .. وأنا ـ لحسن حظك أيضا ـ أعرف مكان هذا الوكر فى الأحراش القريبة من لاجوس .. فاذا أردت أن تصحبنى فستجد الاجابة على كل ما يخطر ببالك الآن ..

***

وقبل ان أسأله عن الموقع ..

كنت أقفز معه فى أوتوبيس انتهى بنا الى آخر حدود العاصمة .. وبعد ان عبرنا نهرا صغيرا .. كانت قدمانا تدلف داخل أزقة احدى القرى الافريقية داخل الادغال .. وعندما خرجنا منها طلب منى أن أسرع الخطى .. قبل أن تغيب الشمس .. وبعد رحلة شاقة قطعنا فيها ثلاثة كيلو مترات سيرا على الأقدام .. طلب منى « هودنجا » أن أتوقف وأشار الى بضع بيوت من فروع الشجر مخروطية الشكل محاصرة بأربعة من رجال البوليس ..

* وقال هودنجا :

لم أكن أتوقع ان المكان محاصر •• وحتى لا نقع فى محظور فسوف أذهب اليهم واستأذن •• وسأصارحهم بانك صحفى وتريد أن تعرف شيئا عن هذا النشاط المحرم فى بلادنا •• حتى لا تتعرض لأى متاعب ••

تركنى « هودنجا » •• وذهب الى رئيسهم •• ووضعت يدى على قلبى •• فقد كاد الفضول ان يفتك بى •• وصعب على ان اعود من هذا المشوار المرهق صفر اليدين ••

بعد مفاوضات استغرقت عشر دقائق••وجدت « هودنجا » يلهث نحوى مسرعا •• ويقول لى لقد وافق « الرئيس » ـــ يقصد رئيس الشرطة ـــ على أن تجوس خلال هذا الوكر•• بشرط أن تغطى الكاميرا التى تحملها له طوال فترة وجودك •• لأن الضابط اصدر اليه أوامر بمنع التصوير ••

وسلمت « هودنجا » الكاميرا •• ووافقت دون تردد •• وبعد توان كنت أقف وسط أبشع وألعن مكان يمكن أن تقع عليه عينا بشر •• وأخذ هودنجا •• يتكلم فى سرعة •• فالوقت ضيق ورئيس الشرطة يخشى حضور الضابط ••

أشار هودنجا لأحد الأركان المخروطية وقال :

ـــ هنا يحبسون الأطفال •• قبل ذبحهم ••

وهنا يفصلون رءوسهم عن أجسادهم ••

ثم أشار الى بعض الحبال ••

وهنا يعلقون هذه الرءوس ـ بعد فتحها ـ لتجفيفها ••

وهنا يفصلون الأمخاخ المجففة عن الجماجم ••

وهنا يطحنون هذه الأمخـاخ •• لاستخلاص (البودرة القاتلة) لاستخدامها فى سحرهم الأسود ••

وهنا (الفرن) الذى يحرقون فيه جماجم الأطفال لاخفاء جريمتهم الشنعاء ••

و ••• هنا طلبت منه أن ينوقف عن الكلام •• فلم يعد العقل بقادر على الاستيعاب •• ولا القلب بقادر على الاحتمال •• أحسست أن مشاعرى كلها تختنق وراء غمامة كثيفة من الأحزان التى تنوء بها الجبـال (•• طغى على صدرى مشاعر كثيفة من الحزن والغضب ولمحت الشمس وكأنها تودع معى يوما ثقيلا محموما ••)

لا أدرى متى انتهى مكوثى •• فى هذا الوكر الأسود ••

ولم أشعر بنفسى •• حتى و « هودنجا » يقطع بى طريق العودة فى الغابة •• ولم أتذكر كيف نقلنى القارب مرة أخرى عبر النهر الى ضاحية لاجوس •• ولم تستطع أضواء العاصمة التى تتابعت من خلال نافذ الأوتوبس أن تنتزع كيانى ومشاعرى •• من تلك البقعة الكئيبة التى رحلت عنهـا منذ سـاعات ••

جميعا ــ اشباح ملعونة •• هبطت من كوكب شرير والا فكيف كنت أدى وجوه الافريقيين السوداء من خلال النافذة •• وكأنها سمحوا فى الماضى بهذه الجريمة البشعة ••

حتى كلمات « هودنجا » بدت لى وكأنها همهمات غير مفهومة •• ولكننى سمعته يقول :

ــ ان نفخة واحدة من هذا المسحوق الرهيب كاف لقتل انسان فى ثوان •• وهكذا يستخدم السحرة هذا المسحوق •• فى قتل أعداء زبائنهم •• فى صمت •• ودون أى اثبات •• ولذلك حرمت الحكومة هذا النوع من السحر ولا يمضى أسبوع دون أن تصادر وكرا من أوكارهم ••

و •••

شعر « هودنجا » •• أنه لم يعد لى أى رغبة فى سماع المزيد •• وحاول أن يخفف من ثقل مشاعرى •• فقال :

ــ ولكن مرة واحدة •• استخدم الافريقيون هذا المسحوق •• فى كينيا فى حربهم ضد الانجليز ••

واستطرد دون أن أعلق ••

ــ هل سمعت عن حركة « ماو ماو » ؟

ولم أرد ••

فواصل كلامه قائلا :

ـ لقد كانوا يضعون هذا المسحوق فى فوهة سهامهم .. وكانت كافية لقتل جنود الأعداء لحظة وصولها لأجسامهم .. فى هدوء .. ودون أن يسمع أحد فى المعسكرات المجاورة .. فيفزع للنجدة ..

واستمر صمتى .. فقد كرهت أن أسمع شيئا عن هـذا المسحوق حتى ولو كان يستخدم ضد الأعداء ..

وتذكرت عشرات الأطفال .. الذين راحت جماجمهم ضحية هذا الجنون والجنوح البشرى البائس ..

وانتهى مشوارى الى فندق « الامباسادور » بالعاصمة ..

وعندما استلقيت على السرير .. سألنى زميلى المصـور محمد سعيد :

ـ أين كنت ؟

ووجدت نفسى اهمهم ..

كنت فى مكان سأندم على رؤيته طوال حياتى .. وحـاول أن يعرف المزيد .. ولكننى ذهبت فى غفوة عميقة .. ظللت بعدها .. أقاوم أبشع « كوابيس » رأيتها فى أحلامى .. خلال ليلة لا تنسى .. أعقبت نهارا لا تغيب شمسه عن ذاكرتى ..

المشهد رقم (٤)

أنا افريقية .. اذن أنا حرة

الحقيقة التى تقول ان بنات السويد والنرويج أكثر بنات العالم حرية .. خرافة يجب أن يعاد النظر فيها .. فالفتاة الافريقية تتمتع بمجموعة من الحريات تثير حسد أية فتاة فى العالم كله ..

فى الطائرة التى حملتنى من لاجوس الى القاهرة .. كان يجلس على المقعد المجاور لى أحد الصحفيين الهنود .. وكان هذا الصحفى قد أمضى أكثر من خمس سنوات مراسلا متجولا لصحيفته فى أوربا .. وكان عائدا الى بلاده بعد زيارة خاطفة لنيجيريا ..

ولما كانت الطائرة ستمضى بنا فى الجو أكثر من خمس

ساعات فقد دار بيننا حديث طويل ، كان معظمه حول الفرق الهائل بين الحياة فى أوربا وفى افريقيا ..

وكالعــادة ..

بدأ الحديث فى السياسة .. وانتهى الى المرأة ..

ولم يستغرق حديث السياسة سوى ساعتين .. كان الكلام خلالهما هادئا لا يحمل أى خــلاف .. فكلانا من بلد صديق .. وكان هناك شبه اتفاق فى معظم وجهات النظر ..

وعندما جاء حديث المرأة .. والحرية المتاحة لها فى بلاد الدنيا .. بدأ الخلاف .. وارتفعت حرارة الحوار حتى كادت تطغى على أزيز الطــائرة .. فقد كان صاحبى يعتقد ــ وهو القادم من أعظم القارات تقدما ــ انه سيسمعنى كلاما مثيرا .

وكان ملخص ما قاله لى عن بنات أوربا الآن لا يخرج عما يعرفه كل انسان .. ولا يخرج عما تناولته أفلام السينما من ان الفتاة الأوربية ــ خاصــة فى الشمال ــ تمارس حريتها « الجنســية » منذ ســن الثالثة عشرة .. وتنفصــل تماما عن والديهــا .. وتصبح حرة فى أن تختــار من تريد وترفض من تشاء و .. و .. الى آخر هــذا الكلام الذى سمعنا وشاهدنا « شرحه » فى أكثر من رواية .. وفيلم ..

وعندما انتهى صاحبى من حكاياته « الكثيرة » أثاره عدم اكتراثى فى الوقت الذى بدأ ينظر لى فى دهشة وأنا أقول :

ـ ان المرأة الافريقية تتمتع بمجموعة من الحريات تحسدها عليها أية فتاة أوربية ..

وأيقظ الكلام فضول أخينا الصحفى ..

و .. بدأ يستمع فى شغف شديد ..

قلت له : باختصار شديد .. يجب أن تعرف أن المرأة فى افريقيا تسيطر تماما على الحياة العامة .. والأسرة .. والمجتمع كله ..

وتلعب المرأة الافريقية دورا رئيسيا فى الحياة السياسية .. وفى معظم البلاد التى زرتها يوجد تنظيم نسائى « سياسى » غاية فى القوة الحيوية .. فلم أر مظاهرة واحدة خالية من عنصر النساء ولا يعقد مؤتمر واحد الا بحضور النساء .. ولا ينتهى الا بمناقشات وصرخات « الزعيمات » اللاتى يفرضن دائما وجهة نظرهن على حضرات الرجال الآخرين الحاضرين الذين لا يملكون أمام سيطرتهن حولا ولا قوة ..

وقد يبدو هذا الكلام « غريبا » أو « خياليا » ولكن اذا علمت مثلا أن حزب الرئيس الراحل سيكتورى فى غينيا كونته امرأة ، وأن هـذه المرأة ـ كانت أول وزيرة عمل فى قـارة

افريقيا ــ وكان لها سيطرة هائلة على الشعب والحكومة فى غينيا لزال تماما هذا العجب ..

* وسألنى الصحفى الهندى فى شىء من الدهشة :

ــ وكيف حدث هذا ؟

ــ المسألة فى غاية البساطة ..

ففى عهد الاستعمار الفرنسى .. كانت هذه المرأة ــ وتدعى مدام دى فوبو ــ على شىء من العلم والثقافة .. فقامت بتكوين تنظيم نسائى بعد أن أحست ــ قبل الرجال ــ بخطر الاستعمار الفرنسى وبضرورة زواله .. واستطاعت أن تقنع الكثيرات من السيدات والفتيات بالانضمام الى التنظيم ..

وكما يحدث هنا ــ فى مصر ــ عندما « يجر » الرجل زوجته وبناته الى اهتماماته السياسية والاجتماعية فقد استطاعت سيدات وفتيات الحزب أن يغرين أزواجهن وأولادهن وأبناءهن الى حظيرة الحزب النسائى .

وكان أحد الذين انضموا الى هذا الحزب الشاب المثقف أحمد تورى .. أو سيكتورى ..

ونظرا لما كان يتمتع به هذا الشاب من قوام فارع .. وثقافة واسعة .. وقدرة هائلة على التأثير فى الجماهير .. فقد استحوذ على اعجاب القوة المسيطرة فى الحزب .. وتم انتخابه

رئيسا لهن •• وظللن وراءه يساندنه فى اخـلاص حتى استطاع بعد سنوات أن يحصل على الاستقلال •• ويكون أول رئيس لجمهورية غينيا المستقلة !!

وكان من الطبيعى أن تشترك المرأة فى أول وزارة مستقلة•• فاختار سيكتورى مدام « دى فوبو » وزيرة للعمل فى وزارته•• والذين يعرفون تاريخ غينيا •• يعلمون مدى السيطرة الحكومية والشعبية التى حظيت بها هذه المرأة هناك ، فوراءها كان يقف كل نساء غينيا وفتياتها •• ومن وراءهن يقف جميع الرجال •• أزواجا وأشقاء وأبنـاء •• ويعنى هـذا ان غينيا كانت تقف وراءها •• ولمـا كانت « هى » تقف وراء سيكتورى فان غينيا كلها ــ أيضا ــ تقف ووقفت وراء سيكتورى ••

وقد نعتقد نحن ــ بعقليتنا الشرقية ــ ان هذه الحقائق تضايق الرجل الافريقى هناك أو كانت تضايق سيكتورى مثلا•• وهذا غير صحيح ••

فكما تعود العقل الجماعى الشرقى « هنا » على سيطرة الرجل على الحياة العامة •• فان « العقل الجمـاعى الافريقى » متعود تماما على سـيطرة المرأة •• بل أنه يبدو فى كثـير من الأحيان انه راض تماما عن هـذا •• بل أن الرجل الافريقى كثيرا ما يدافع عن هذه الحقيقة قائلا :

ـ ان المرأة أكثر حرصا على الحياة والأسرة أكثر من الرجل ..

وهو لهذا يخضع لقراراتها التى تخالف وجهة نظره دون أى احساس بالخجل .. وبغير أدنى شعور بأن كرامته « كرجل » تعرضت لأى « خدش »

حكم النساء

وأكبر دليل على ذلك هذه القصة .. وهى أيضا من غينيا وحدثت أيام سيكتورى .. فقد لاحظ فى بداية عهده بالرياسة أن معظم خريجى الجامعة من الشبان يحرصون على العمل فى العاصمة ويهربون من العمل فى الريف أو القرى النائية ..

ولما كانت خطته تعمل على شد القرية الى نفس المستوى الحضارى الذى تنعم به المدينة .. فقد أصدر قرارا يترتب عليه نقل معظم « شبان » العاصمة والمدن الى القرى ..

ولم يعجب هذا القرار « فتيات كوناكرى » .. فهناك أكثر من ارتباط عاطفى وعائلى بهؤلاء الشبان .. وبكل بساطة ذهبن الى مدام « دى فوبو » .. وجلسن معها ساعات طويلة

يشرحن لها وجهة نظرهن فى صراحة •• ويبدو أن « الزعيمة » — بحاستها — كامرأة — و « انثى » قد اقتنعت بارائهن ••

ففى اليوم التالى •• قادت مظاهرة نسائية الى منزل سيكتورى ودخلت ضمن وفد منهن الى مكتبه •• وحاول الرئيس اقناعهن بضرورة تنفيذ هذا القرار •• ولكن يبدو انهن أصررن على ضرورة بقاء الشبان فى العاصمة ••

وفى اليوم الثالث تم الغاء هذا القرار •• وبقى الشبان فى العاصمة ••

وقد يكون هذا خطأ •• ولكن الذى أود أن أوضحه انه خطأ ناتج عن عدم تعليم المرأة هناك ••تماما كما حدث فى بعض البلاد الأخرى أخطاء ناتجة عن انتشار « الأمية » بين الرجال ••

خطأ ناتج عن التخلف العام •• الذى تسبب عنه الاستعمار الطويل وعدم اتساع المدارك والوعى ••

أما ان هذا الخطأ ناتج عن « سيطرة المرأة وحكم النساء » فهذا ما لم يخطر على بال الرجل الغينى أو الافريقى بوجه عام •• فهذه مسألة لا يشعر بها •• ولا يتضايق منها •• بل يتقبلها بروح ودية •• وباقتناع تام •• اقتناع له جذور طويلة فى تاريخ الرجل الافريقى •• الذى يضع للمرأة مكانة خاصة فى قلبه وفى مجتمعه ••

الأم هي سيدة البيت

قبل عصر الاستعمار بقرون عديدة ••

وعندما كانت حيـاة الغابـة تسيطر على الانســان بكل ما يعتصرها من قلق وخوف •• واضطراب •• كان الرجـل يلتقي ـ صدفة ـ بالمرأة •• يلتقي بها في صــورة حيوانية •• لا تختلف كثيرا عن صور تلك اللقاءات « الودية » العاجلة التي تحدث بين الحيوانات الأخرى ••

ولمـا كان الانسان هو الحيوان الوحيد ـ في الغابة ـ الذي لم تحدد له الطبيعة موعدا معينا في التناسل ••

ولمـا كان الرجل •• لم يكن قد عرف بعد حياة المنزل•• ولا يبقى مع المرأة سوى ساعات قليلة ••

فغالبا ما كان ينتج عن هــذا اللقــاء ثمرة جديـدة •• أو انسان جديد •• وهكذا كان الرجل « يفعلها » ثم يمضي الى حال سبيله في الغابة دون شــعور بأي مسئولية •• وكان ولده الصغير يخرج وحيدا الى هــذا العالم الرهيب الموحش فلا يجد أمامه سوى حضن أمه ترعاه وتحميه وتعلمه وتوجهه ولا تسمح له بالانطلاق الى قلب الغابة الا اذا تخطى مرحلة الطفولة ••

وحتى هذه المرحلة لم تكن هناك أسرة على الاطلاق ••

فقط الأم تربى أطفالها .. فاذا ما كبروا تركتهم كما تفعل حيوانات الغابة يواجهون مصيرهم داخل أحراشها ..

وعندما تقدمت حياة الغابة ..

كانت المرأة أسبق من الرجل — الى حياة أكثر تقدما — عرفت طريقها الى الاستقرار .. وكانت أول من بنى المنزل .. وعاشت فيه .. وحتى فى هـذه المرحلة .. كان الرجال يمرون عليها .. ويعاشرونها ثم تلد هى الأطفال — من آباء مختلفين — ثم تنسب أولادها اسماءهم الى اسمها .. لانه ليس هناك آباء ثابتين ..

ومن هنا تكونت الأسرية « الأموية » أسرة تنظمها الأم وتحكمها المرأة لأن الرجل مازال هاربا .. تائها .. خائفا فى احشاء الأحراش .. وحيواناتها الضارية ..

وفى مرحلة أكثر تقدما .. استطاعت المرأة أن « تجذب » الرجل الى الاستقرار معها .. ولم تستطع أن تقنعه تمام بان يصبح زوجا دائما .. وأبا لأولاده الا بعد آلاف السنين ..

من هنا ..

يمكننا أن نصل الى الجذور الحقيقية التى تستمد منها المرأة الافريقية مكانتها الآن فى قلب الرجل .. فى قلب الابن .. فى قلب الأخ و .. فى قلب الزوج ..

ومن هنا ..

يمكننا أن نصل الى النبع الحقيقى الذى دفع الرجل الافريقى الى احترامها .. وتقبل سيطرتها .. وتقديس قرارتها خاصة مايتعلق منها بالأسرة والعاطفة والجنس ..

فان له معها تاريخا طويلا من الحب العميق .. من الشعور بالامتنان والحماية والأمان .. انه لا ينسى أبدا فى أعماق « وجدانه » السحيق أنه كان مجرد حيوان تائه لا يشعر بأى مسئولية ، وكانت (هى) تجلس وحدها فى عش موحش .. وفى بطنها نطفة منه تحنو عليها .. وتسهر على رعايته حتى يصبح جنينا .. ثم مولودا .. قطفلا .. فانسانا جديدا يملأ الغابة صراخا وحركة وعويلا ..

فاذا أضفنا لهذا ذلك الأثر الذى تركه الرجل الأبيض — خلال سنوات الاستعمار — من طريقة معاملته للمرأة .. واحترامه لها .. لاستطعنا أن نكون أكثر فهما للمرأة الافريقية .. ولتصرفاتها التى قد تبدو غريبة لنا ..

وقد ذكر أحد الأوربيين أن هذا الأثر لا يتعدى قطرة فى بحر كبير .. فبينما رغب الرجل الأوربى فى « منح » الحرية للمرأة .. كانت هذه الحرية جزء لا يتجزأ من حياتها .. من تاريخها .. من تقاليدها النابعة من حياة الغابة ..

فمثلا المرأة الأوربية تفتخر الآن بأن لها مطلق الحرية فى أن تختار زوجها .. ولم تعد تخضـــع لضغط أهلها كما كان يحدث فى المـاضى ..

وعندما تستمع المرأة الافريقية لهذا تهز كتفها .. فهى منذ آلاف السنين تختار من تحب من رجـــال (الغابة) لمعاشرتها حتى دون زواج .. وهى لم تعان يوما واحدا من ضغط أهلها لسبب بسيط جدا .. وهو انه لم يكن لها أهل على الاطلاق .. فهى دائما وحيدة ..

تختار وحدها .. وتعاشر وحدها .. وتلد وحدها .. وقد منحتها تلك الظروف حرية هائلة تجـاه الجنس الآخر ما زالت ظلاله باقية حتى الآن .. حتى بعد تكوين المنزل فى الغابة .. ثم فى القرية .. وحتى بعد انشاء المدن الصغيرة والكبيرة ..

فى برازافيل .. يحتفلون (بالبنت الحامل)

والذى لا يعرف تاريخ المرأة الافريقية..وتقاليدها القديمة يكاد لسانه ينعقد من الدهشـــة وهو يتجول فى شـــوارع المدن الكبيرة مثل « داكار » و « لاجوس » و « برازافيل » .. تكفى ايماءة .. أو ابتسامة بسيطة لأى فتاة ، ويصبح كل شىء بعد ذلك غاية فى السهولة ..

والنظرة السطحية لهذه الظاهرة تجعل الزائر « الشرقى » ذا التقاليد المحافظة يحكم حكما قاسيا على الفتاة الافريقية ولكنه اذا علم أن تصرفها هذا ما هو الا امتداد لحياتها القديمة فى الغابة .. الذى يدفعها الى ارضاء كل نزعاتها العاطفية والطبيعية .. خاصة ان تقاليدها الأسرية .. وقيمها الوثنية لا تقف حائلا أمام هذا التصرف ، بل على العكس قد تشجعه وتباركه وتسانده .. فالعريس الافريقى ــ على سبيل المثال ــ وفى معظم البلاد التى زرتها ــ لا يهتم اطلاقا « بعذرية » فتاته فهو يعتقد أنها قد مارست ــ بحكم الضرورة ــ كافة حريتها الجنسية مثله منذ أن وصلت الى سن ملائمة ..

وحتى اذا كانت ممارستها هذه قد ترتب عليها أن تحمل قبل الزواج فهذا لا يمثل شيئا خطيرا فى نظره .. وقد سمعت أن من « تقاليد » بعض الأسر فى الكونغو برازافيل ــ أن تقيم حفلات خاصة للفتيات اللاتى يحملن قبل الزواج فهذا يدل فى نظر الأسرة والمجتمع ــ انها فتاة « ولود » يمكن أن تهب مستقبلا للزوج ما يريد من البنين والبنات وهذا الطفل لا يمثل أى مشكلة .. ان اسمه ينتسب الى الأم كما كان يحدث فى الماضى .. وقد يترك لوالد العروسة عند الزواج .. وقد يقبل الزوج أن يجعله معه ومع العروس حسب الاتفاق حسب رغبة الطرفين .. وقد دعيت لواحدة من هذه الحفلات .. واهتممت أن ارقب

وجه الفتاة الحامل (المحتفى) بها •• لم يكن على وجهها أى أثر للخجل •• على العكس كانت السعادة تملأ وجهها •• والاغرب أن والدها ووالدتها كانا أكثر منها سعادة و •• فخرا • اذن •• فلا مشاكل فى الجنس •• ولا فى العاطفة •• المهم هو أن الطبيعة تأخذ مجراها •• لا يعترض اندفاعها شىء من تعاليم الدين أو العرف •• أو التقاليد •• رغم أن معظمهم قد اعتنق المسيحية عن طريق التبشير ، فقد حرص الرجل الأبيض أن يحجب من تعاليم المسيحية النقية عن الفتاة الافريقية ما قد يعرقل اشباع حاجاته العاطفية والجنسية •• خاصة عندما وجد فى جسدها البرونزى الفارع شيئا جديدا •• أو نزوة جديدة ••

وكانت المرأة الافريقية بفطرتها •• تهب له كل ما يحتاج دون مقابل •• ولكنه استطاع أخيرا أن « يلوث » نظرتها الى الجنس عندما أخذ يترك لها بعد كل مقابلة بعض الفرنكات أو الاسترلينى ••

ومن هنا تحولت لحظات الحب التى كانت تهبها (مجانا) للغرباء •• الى تجارة أخذت تتسع حتى أصبحت لها شوارع كاملة ما زالت باقية فى معظم العواصم الافريقية •• شوارع يعربد بين أحشائها أعنف صور الجنس فى صراحة لم يشهد لها العالم مثيلا ••

ـــ وماذا بعد الزواج ؟

هكذا سأل صاحبى الهندى ..

ــ انها تخلص لزوجها .. ولكن معنى الاخلاص هنــاك يختلف .. فاخلاص المرأة المتزوجة يتركز فى انجاب الأطفــال ومساعدة الزوج فى عمله .. ولكن « الخيانة » بمعناها الذي نعرفه هنا فلا محل له اطلاقا هناك .. ولا بسبب أى ازعــاج بالنسبة للزوج ..

ــ ولكن ماذا يكون وقع الخبر على الزوج ؟

ــ تماما .. كما يكون وقع الخبر على الزوجة فى مصر أو الهند بعض الغيرة .. شىء من العتاب .. وقد يشحذ هــذا همة الزوج فى مزيد من الجهد لجذب الزوجة اليه .. لشغلها عن الاغراء الخارجى ..

ــ لا .. لا .. غير معقول .. الذى تقول ..

هكذا صاح صديقى الهندى ..

ــ ليس هناك شىء معقول . وغير معقول بالنسبة للمجتمع الانسانى فكل مجتمع له « معقول » خاص به والشىء « غير المعقول » فعلا هو ألا نصــدق هذه الحقائق .. ولا نتقبلها لمجرد انها أشياء لا تحدث فى بلادك أو بلادى .

فالفتاة الافريقيـة لا تمـارس هذه الحريات على انهـا « اباحية » أو ممنوعات لأن معتقدها الديني •• وتقاليدها •• ونظرة المجتمع لا تحرم ذلك ومن الخطأ أن نحكم على ممارسات الشعوب من خلال قيمنا نحن •• وقيم ديننا أو من خـلال نظرة مجتمعنا الى الحرام والحلال •

••

المشهد رقم (٥)

صفحة من تاريخ مصر .. فى أحراش أوغندا

لست أدرى لمــاذا شعرت بسعادة غامضة عندما أصبحت طائرتنا فوق أوغندا ..ولم يكن هــذا الاحساس نابعا من ذلك الجمال الطبيعى الذى ينبع من جبالها وسفوحها الخضراء .. وانما كانت هنــاك أكثر من حقيقة تحرك هذا الاحساس ..

اننا نقترب من قلب القارة الافريقيــة .. وموقع أوغندا وسط القارة .. ان لم يكن وسط العالم بأسره .. وبعد قليل تهبط بنا الطائرة فى مطار عنتيبى .. المدينة الأوغندية الشهيرة التى تقع على خط الاستواء .. وسط الكوكب الأرضى .. حيث تمتد بحيرة فيكتوريــا فى مســاحة هائلة أمام العــاصمة « كامبالا » ..

بعد هبوط الطائرة اتجهت الى العاصمة وأنا أشعر بأكثر من مفارقة فرغم أن بحيرة فيكتوريا هى بداية رحلة النيل ·· فان الناس لا يزرعون منها أراضيهم ·· ولكنهم هنا يشربون معنا من مياه النيل ويزرعون أراضيهم بأمطاره ويستظلون بأشجاره ويستوحون من منابعه أساطيرهم وآشعارهم ·· ويصيغون من كل هذا حضارتهم ·· وتاريخهم ولابد ان بين صفحات هـذا التاريخ شيء مشترك بيننا ··

وخلال تجوالى فى بعض القرى خارج كمبالا العاصمة ·· مررت بأحد الافريقيين يرتدى طربوشا ــ كالذى كان يرتديه المصريون ــ فى عهد الملك ·· ولكن بدون زر وبدا لى الرجل ·· سعيدا بهذا الطربوش ·· وعندما سألته عن سر هذا الطربوش قادنى الى قرية ··· كل رجالها يرتدون الطرابيش ·· وخلال لقاء طويل مع أكبر شيوخ القرية ·· فهمت منه كل شيء ·· انهم أحفاد كتيبة من المصريين الذين غزوا أوغندا أيـام الخديوى اسماعيل ·· وبدأ الرجل ·· يروى لى القصة كما يعرفها :

بدأت السطور الأولى لهذه الصفحة تكتب حروفها عندما جهز الخديو اسماعيل باشا حاكم مصر حملته الشهيرة بقيـادة أمين باشا للتوجه الى منابع النيل وقال له اسماعيل وهو يودعه :

ــ سر مع هؤلاء العساكر ·· واجعل النيل مرشدك ··

فاذا وصلت الى المنبع لهذا النهر فاجعله تابعا لمصر •• ولا تمضى خطوة أبعد من ذلك ••

وكان اسماعيل يهدف من ذلك أن يؤمن منابع النيل بالنسبة لشعب مصر •• وأن يجعل حوض نهر النيل من المنبع للمصب بلدا واحدا ••

ونجح أمين باشا فى التغلب على كل القوى التى هاجمها •• حتى وصل الى أوغندا القديمة بممالكها العتيدة •• وواجهته هذه الممالك بعنف ، ولكنه استطاع أن يستمر حتى وصل الى تل « روباجيا » المقام عليه كنيسة روباجيا فى كمبالا عاصمة أوغندا الحالية •

وفتحت هذه الحملة عيون انجلترا فى ذلك الوقت على ما يجرى وسط القارة الافريقية ، وكانت قد بدأت التهام أجزائها الواحدة بعد الأخرى وكان يمثل انجلترا بأوغندا فى ذلك الوقت كابتن « ليوجارد » رئيس ادارة شركة أمبريال بشرق افريقيا فى ذلك الوقت ••

ومما أثار « ليوجارد » فى هذه الحملة ان قائدها ـ وان كان اسمه أمين باشا ومسلم ـ الا انه ليس سوى رجل ألمانى وعسكرى يعمل لدى الخديوى اسماعيل الذى كان لا يثق سوى فى الأجانب •• وكانت مخابرات انجلترا فى ذلك الوقت على علم تام بالاطماع الألمانية فى شرق افريقيا ••

وفى هذه الفترة كان اسماعيل مدينا بالكثير لصندوق الدين .. وكانت حالة مصر لا تسمح بمثل هذه المشاكل ولا التوسعات .. وذهب ليوجارد لأمين باشا .. ونصحه بالعودة وعدم اثارة القلاقل .. وأطلعه على أسرار الحالة السيئة التى تمر بها ميزانية مصر .. ولم يزد هذا الكلام أمين باشا سوى اصراره على الاستمرار وقال للثعلب الانجليزى ليوجارد :

ـ لن أعود الا اذا جاء لى كتاب من الخديوى ..

وأسرع ليوجارد ليخبر لندن بذلك وأسرعت ـ بالتالى ـ لندن بالضغط على الخديوى حتى استصدرت قرارا سريا منه الى أمين باشا بالعودة من أوغندا .. والتخلى عن المناطق التى احتلها ..

وفوجىء أمين باشا بهذا التصرف غير المنتظر وغضب .. ولم يعد الى مصر هذه المرة .. ولكن الى ألمانيا .. لينصح زعماء البلد بضرورة التواجد فى شرق افريقيا نظرا لضخامة ثرواتها وجمال مناخها ..

وكان هذا الحادث الذى بدأ بحملة مصر لتأمين منابع نهرها الخالد .. هو بداية للوجود الألمانى فى تنزانيا ، والوجود الانجليزى فى كينيا وأوغندا..والطريف ان أمين باشا عندما أمر عساكره بالعودة الى مصر..رفض بعض الجنود المصريين العودة .. وهربوا فى أحراش أوغندا وتزوجوا من بنات قبائلها

ومازال أحفادهم هناك •• يعيشون حتى هـذه اللحظـة ••
وهـؤلاء هم الذين تعرفت عليهم صدفة عندما لاحظت أن بعض الأوغنديين فى شمال أوغندا يرتدى الطرابيش المصرية ويعلق على ذراعه شرائط الشاويشية التى تشير الى انتماءاتهم القديمـة الى حملة الخديوى اسماعيل •• تلك الحملة العظيمة التى لم يبق منها سوى مجرد ذكريات فى احدى قرى أوغندا النائية ••

أغرب حكاية الاستقلال

وفى أوغندا أيضا •• استمعت لتفاصيـل أغرب حكايـة استقلال •• فعندما استقلت أوغندا فى أكتوبر ١٩٦٢ واجهت أغرب مشكلة يمكن أن تواجه زعيما وطنيا •• والزعيم هنا هو « ميلتون أوبوتى » محرر أوغندا وأول رئيس لجمهوريتها ••

فقد كانت أوغندا تحوى أربع ممالك محلية ، يحكم كل منها ملك ، وكان رئيس الدولة بريطانيا وهو «سيرادوار موتيسا» وكان أوبوتى رئيسا للوزراء بحكم الأغلبية التى حصـل عليها حزبه فى الجمعيـة الوطنية •• وهو حزب « مؤتمر الشـعب الأوغندى » ••

وعندما انتهت مدة رياسة « موتيسا » أصبح « الكاباكا »
ملك بوغندا رئيسا للدولة •• وأوبوتى رئيسا للوزراء ••

وهذه الممالك كانت عند بداية الاستقلال ••

* **بوغندا : ٢ مليون نسمة**

* بورفيورو : مليون نسمة

* **انكولو : مليون نسمة**

* **تورو : مليون نسمة**

* **وباقى أوغندا كلها : ٢ مليون نسمة**

وقد أصبح الكاباكا ملك بوغندا الرئيس الأعلى للدولة
بسبب أن مملكته تحوى العدد الأكبر من سكان أوغندا ، وكذلك
العدد الأكبر من مدارسها وجامعاتها •• عاصمة البلاد كمبالا ••

ولم يكن هذا الموضوع يرضى أوبوتى •• زعيم الأغلبية
ورئيس أقوى أحزابها •• لقد كانت آماله تحوم حول تحقيق
الوحدة الوطنية لينطلق ببلده الصغير الذى لا تتجاوز مساحته
٩٤ ألف ميل مربع •• فكيف يمكن لبلد هذه مساحته أن
ينطلق وهو أسير نظام متخلف تمزقه خلافات أربع ممالك لكل
منها تقاليدها القديمة الخاصة •

* ما الحل ؟

و •• الكاباكا سعيد جدا برياسته للدولة الجديدة •• وهو

ينظر اليها كمملكة خاصـــة •• ويمضى فى شـــوارع العاصمة كالامبراطور يركع له الشعب فى مواكبه ولا يستطيع أحد أن يرفع عينيه حتى لتحيته •• وأوبوتى بطبيعته رجل هادىء وصبور ولكنه ــ أيضا ــ عنيد ومؤمن بشعبه ووطنه ••

وانتظر قليلا •• حتى طلب الكاباكا ذات يوم أن يقوم هو بصفته رئيسا للدولة بتمثيل أوغندا فى الخارج ••

وبهدوء احتكم أوبوتى للدستور •• وكانت النتيجة فى صالحه •• وكان الدستور يقول أن رئيس الوزراء بصفته ممثلا لأغلبية برلمـــانية هو الذى يمثل الدولة فى الخارج ••

* ثم ثار الخلاف الثانى ••

كانت هناك بعض المقاطعات المختلف عليها ، وقد اقتطع الانجليز أراضى هذه المقاطعات من مملكة بورنيورو وأعطوها هدية لملك بوغندا نظرا لانه كان شديد التعاون معهم ••

وحدث خلاف بين الكاباكا وأهالى هذه المقاطعات ••

ومرة أخرى تدخل أوبوتى وقال :

ــ نحتكم للدستور ••

والدستور يحتم فى هذه الحـــالة اجراء استفتاء أهـــالى البلاد •• وأجرى الاستفتاء •• وكانت النتيجة عودة هـــذه المقاطعات لبورنيورو واقتطاعها من بوغندا •• من الكاباكا ••

واعتبر الكاباكا هذه النتيجة ضربة موجهة له شخصيا ..
ومنذ تلك اللحظة تأزمت العلاقات بين الطرفين .. وبدأ الكاباكا يتحرك فى الظلام ويقوم باتصالات فى الداخل وفى الخارج ..

وفى عام ١٩٦٦ وصل الأزمة لقمتها عندما وصلت أخبار « الأوبوتى » بأن الكاباكا يتآمر للقضاء عليه عن طريق استخدام قوات بريطانية ..

و .. كذلك عندما طلب الكاباكا من أوبوتى اخلاء العاصمة (كامبالا) لا لشىء الا ان هذه العاصمة تقع فى دائرة مملكته بوغندا !!

وهنا كان صبر أوبوتى قد نفذ تماما ..

فقام على الفور بعزل الكاباكا واستولى على كل سلطاته وأعلن نفسه رئيسا للدولة ..

أما الكاباكا فقد هرب من الباب الخلفى لقصره الاسطورى .. ومشى أكثر من شهر ونصف شهر على قدميه فى الادغال حتى وصل الى بوروندى .. ومن هناك استقل طائرة خاصة الى بريطانيا ..

وفى عام ١٩٦٧ أعلن أوبوتى دستوره الجديد الذى أصبحت بمقتضاه أوغندا جمهورية بلا ممالك..بلا نظم قديمة.. وأصبح أوبوتى أول رئيس لجمهورية أوغندا الجديدة ..

والواقع ان المسألة لم تتم هكذا بالبساطة التى تبدو من خلال هذا السرد السريع •• فان القضاء على ممالك عريقة ذات تقاليد موغلة فى القدم وذات مقدسات ومعتقدات خاصة ليس بالشىء السهل •• ولكن وطنية أوبوتى واقتناعه التام بمصلحة أوغندا جعلته يضرب هذه الضربة التقدمية البارعة ليختصر سنين طويلة على أوغندا وكان يمكن أن تضيع من عمرها وسط دهاليز مظلمة من التخلف والتطاحن وسط خلافات لا مبرر لها بين أفراد بلد واحد •• بحكم أربع ملوك •• ورئيس وزراء !!

••

المشهد رقم (٦)

أعنف رقصة فى الدنيا

هذه أعظم رقصة فى العالم •• اسمها الطم طم •• يرقصونها فى أدغال افريقيا •• انها مزيج من الزار المصرى والروك آندرول الامريكى والسامبا والتشاتشاتشا ••

كان آخر قرار أصدرته حكومة السنغال أثناء زيارتنا لها (هو) تحريم رقصة الطمطم فى موسم حصاد الفول السودانى••

والسبب هو الاقبال الجنونى للشعب السنغالى على هذه الرقصة •• أما لماذا كان التحريم فى موسم الحصاد بالذات •• فذلك يرجع الى سبب اقتصادى بحت ••

فالمحصول الرئيسى للسنغال هو الفول السودانى •• ولما كانت هذه الرقصة بالذات ـ الطمطم ـ منتشرة

انتشارا منقطع النظير فى ريف السنغال ومدنها •• فقد اضطرت الحكومة لاصدار هذا الأمر الغريب ••

وعندما يسمع السنغاليون طبول (الطمطم) •• فان شيطانا غريبا يسيطر على أرواحهم •• وتفقد عقولهم القدرة على التفكير فى أى شيء آخر •• وتفقد أجسادهم القدرة على الثبات •• وتتحرك (لا اراديا) مع ايقاعات الطبول ••

فاذا دقت هذه الطبول فى قرية •• خلت بيوتها من النساء والفتيات والأطفال والشيوخ •• وتصبح بعد ساعة واحدة •• مجرد أكواخ مهجورة موحشة ••

***

فى أحد الأيام كنا نسير فى أحد شوارع الحى الوطنى بالعاصمة داكار •• ولاحظنا انه خال تماما من الناس •• ومن الحركة العادية التى تضج بها كل مدينة وفى نهاية الشارع فهمنا كل شيء •• كانت هناك حفلة طمطم كبيرة ••

زوجة أحد الوزراء

وفى يوم آخر •• كنت اتجول فى ميدان الاستقلال أكبر ميادين المدينة •• وفوجئت بمشهد غريب •• كانت هناك

احدى حلقات رقصة الطمطم وبجانب الحلقة شاهدت سيارة فاخرة تقترب وعندما اشتدت قرعات الطبول •• رأيت باب السيارة ينفتح •• وتنزل منها سيدة سنغالية حسناء •• وتقف أمام السيارة وترقص فى نشوة وعنف •• وظلت هكذا تتلوى وترقص فى حركات هستيرية بين تصفيق وصيحات المرافقين فى الميدان •• وعندما سكتت الطبول ركبت سيارتها وأمرت سائقها بالاسراع وعندما اختفت سيارتها •• سألت :

ــ من هذه السيدة ؟

وكانت دهشتى بالغة عندما قالوا لى فى بساطة شديدة :

ــ انها زوجة أحد الوزراء ••

أعنف رقصة فى العالم

ورقصة الطمطم تعتبر ــ حسب كلام خبراء الرقص الذين التقيت بهم فى السنغال من الفرنسيين ــ أعنف الرقصات العالمية •• وهى مزيج غريب من الزار المصرى على الروك آند رول الأمريكى كما تحمل لمحات واضحة من السمبا والرومبا والتشاتشا والتويست •• وقد حضرت ــ أيام العيد الكبير ــ

واحدة من حلقات رقصة الطمطم فى (كولالك) احدى قرى السنغال الشهيرة ..

وتعتمد الرقصة من الناحية الموسيقية .. على ضربات الطبول العنيفة جدا .. وتبدأ حفلة الطمطم بحلقة كبيرة من الشبان والفتيات لا تقل عن ٢٠٠ شخص ..

يقف وسطها فرقة موسيقية تتكون كلها من قارعى الطبول الذين لا يزيد عددهم على عشرة ..

ويبدأ هؤلاء — ولمدة ساعة كاملة — يقرعون بأيديهم وبعصيان صغيرة — مثل عصا المسحراتى — قرعات تحمل (وقعا واحدا) ..

(طم طم .. طم طم طم) ..

وعلى هذه القرعات الرتيبة .. يتجمع الناس من كل اتجاه .. وتفرغ القرى المجاورة كل ما فى أحشائها من أطفال وفتيات وشبان وشيوخ ..

وبعد ساعة من الطبل العنيف المستمر .. يبدأ الرقص ..

والرقص فردى ..

فى بعض الأحيان تتوسط الحلقة فتاة .. وفى البعض الآخر يتوسطها أحد الشبان ..

ولكن رقصة الاثنين تختلف تماما ..

الشباب تتطاير يداه وقدماه فى السماء وكأنه يحاول أن يطير •• وفى بعض الأحيان يبدو وكأنه يقاوم شيطانا لا نراه ••

أما الفتاة •• فان ملامح رقصاتها وان تشابهت الى حد ما فى حركات قدميها مع الشباب فان حركات صدرها ووسطها توحى باشارات جنسية واضحة •• وعندما تصل هذه الحركات الى أقصاها يتصايح الجميع صيحات هستيرية مجنونة •• ويطلبون المزيد ••

وتعنى كلمة المزيد هنا شيئا واحدا ••

وهو ان تزداد الفتاة كرما فى رفع ملابسها والكشف أكثر عن ساقيها ••

وفى هذه الحالة لابد أن تخضع الفتاة •• لأنها كلما استطاعت أن تحوز اعجاب عدد كبير منهم •• حصلت على قدر أكبر من النقود •• وهى تحصل عليها فى صورة (نقوط) كما يحدث فى بعض أفراحنا ••

وعندما يزداد هوس احدى الفتيات••فان بعض صويحباتها يقتربن منها ساعة الرقص •• ويجلسن تحت ساقيها •• حتى اذا فقدت وعيها ورفعت ملابسها الى الحد غير اللائق •• صفقن بعنف لينبهن الفتاة الى ان المسألة قد زادت عن حدها ••

وكلما صفقت صويحباتها ، ارتفعت صيحات الجماهير

المجنونة تطلب المزيد من الفتـاة والفتاة ضعيفـة أمام اغراء الجمـاهير ..

و .. تظل عمليات الاغراء المتبادلة حتى منتصف الليل .. فى أعنف رقصـة شـاهدتها فى افريقيـا بل أعنف رقصـة فى العـالم كله ..

والآن .. هل عرفت لمـاذا قررت حكومة السنغال تحريم هذه الرقصة خاصـة فى موسم الحصاد .. ؟ اذا لم تكن قد فهمت بعد فحاول أن تقرأ الموضوع من آخره ..

●●

المشهد رقم (٧)

مجتمع ((الأكان)) فى اشانتى

نموذج للفكر القبلى الافريقى

الطريق الى فهم أي دولة افريقية لا يمكن أن يكون من خلال أحزابها •• ومؤسساتها السياسية والاجتماعية ذلك لأن فكر أى دولة فى القارة يحوى فى قاعه رواسب هائلة من فكرها القبلى القديم •• ولا يستطيع أى باحث أن يدعى فهم افريقيا بمجرد دراسته لنظمها الحديثة •• فلابد أن تمتد هذه الدراسة أيضا الى فكر افريقيا القديم وأقصد به الفكر القبلى الذى ولد بين الأحراش •• فما زال هذا الفكر يصب بغزارة ويؤثر بوضوح فى تيار الفكر الافريقى المعاصر ••

وسنحاول فى هــذا الفصل أن نقدم نموذجا واحدا لهذا الفكر والنموذج من غانا .. وليس معنى ذلك ان هذا النموذج يعبر عن كل ما تحويه النماذج القبلية فى افريقيا من قيم فلسفية آلهته .. وقواه الخفية ..

ولكننى أقدمه كمثال لهذا الفكر القديم الذى يقبع وراء « الديكتور السياسى » الحديث الذى يخدعك فى البداية من خلال المبانى الشاهقة والشوارع النظيفة التى تركها الاستعمار..

وسنحاول من خلال هــذا النموذج دراســة « مجتمع الاكان » الذى يمثل ثلثى ســكان غانا .. ويقيم معظمهم فى منطقة « الاشانتى » و « اكسيم » وغرب اكرا .. وهى المنطقة التى وقعت فيها حوادث الكرة عندما ذهب فريق الكرة المصرى ليلاعب فريق كوتوكو فى خماسى (بمنطقة قبائل الاشانتى) ..

ومجتمع الاكان ــ كأى مجتمع افريقى قديم ــ له فلسفته الخاصة فى تفسير الكون والحياة والموت .. ونظرته الخاصــة الى الانسان والمجتمع ونظرته المحددة فى الحكم والقضاء .. والنظم العسكرية والأدب ..

دور الأرواح

* فلسفته فى الكون :

والرجل الاكانى لا يهتم كثيرا بالعالم « الظاهرى » المادى الذى يحيطه فالعالم بالنسبة له شىء « غيبى » •• وتنبثق فى نظره كل أمور الطب والسياسة والاخلاق من خلال تعليمات هذا العالم الخفى أو بمعنى أدق من تعليمات الهته •• وقواه الخفية ••

ورغم هذه النظرة الغيبية للعالم فان العقل الاكانى ـ يرفض ـ فى بعض الأحيان حل المشاكل حلا غيبيا •• فلقد كان للاكانى مشاريع فى الحديد والصلب وقد عرفوا طريقهم الى صنع الأسلحة فى أفران الحديد •• كما ان فنهم فى صياغة الذهب والمجوهرات أثار اعجاب السياح الأجانب ، كما أن وسائلهم العلاجية عن طريق الأعشاب وصلت الى درجة عالية من الكفاءة ولذلك فقد ظل هذا الطراز من العلاج ـ حتى الآن ـ منتشرا بين عدد كبير من السكان ••

وتحتل الروح فى عالم « الاكان » منزلة هائلة •• فدولتهم عبارة عن عالم غريب يسكنه الناس والأرواح والالهة ولهذا

فقد كانت القرابة الروحيــة تحتــل المكانة الأولى فى أواصر القربى بين الناس ..

وهم يرون ــ مثلا ــ أن الاحياء فى حقيقتهم أرواح حتى وان كانت مغطاه من الخارج بلحم وعظام وكل انسان فى نظرهم روح أرسلت لهذا العالم لاداء رسالة محددة ولعل هذا يلقى بعض التفسير على محاولاتهم الغريبة ــ فى ذبح بعض الطيور والقاء بعض الترانيم قبل بداية مباريات الكرة .. فكل هــذه التصرفات هى من وحى معتقداتهم الروحية ولهذا فقد كان لاعب الكرة الخطيب بذكائه وايمانه الفطرى يرهبهم جدا عندما كان يقف فى « الجون » ويهمس بقراءة الفاتحة .. كانوا يعتقدون ــ من وجهة نظرهم ــ انه يسحر لهم .. حســب ما أملت عليهم معتقداتهم البدائيــة ..

* نظرتهم الى الانسان والمجتمع :

ومجتمع الاكان مقسم الى عشائر ــ ورغم أن مبدأ المساواة موجود ــ فهى ليست مســاواة مطلقة ، فنجد أن هنــاك ــ مثلا ــ عشيرة واحدة يختار منها كل الحكام .. وقد أضعف هذا احتمال الصراع على السلطة .. وحافظ فى الوقت نفســه على نوع من ديمقراطية القيادة .. حيث أن الوصول للســلطة يأتى عن طريق الانتخابات .. حتى فى قبيلة الحكام .

واقتصاد المجتمع الاكانى مجرد اقتصـــاد « استهلاكى » للحياة اليومية للأفراد •• ولا فائض فيه الا القليل •• فالأرض مشاع للجميع •• وهى ملك مشترك للعشيرة •• الكل يعمل ولا يحق لأحد التصرف فيها ــ عدا شيخ العشيرة ••

ولمـــا كانت احتياجات الفرد مرتبطـــة الى حـــد كبير مع احتياجات عشيرته •• فان « تقرير » العمل المناسب له كان من اختصاص هذه العشيرة •• فالفرد لا يفكر اطلاقا فى اختيـــار العمل المناسب له ••

والأم فى مجتمـــع الاكان هى المســـئولة عن الالتزامات الاقتصادية لأطفالها •• فالرجل مشغول بالتزامات العشيرة •• والأم وحدها مسئولة عن رعاية الطفل •• وهى تتعاون فى تربيته مع المسنين من أفراد القبيلة •• وتعتمد على رصيدهم الفكرى من الحكم والمأثورات •• وتسمع منها ما يشير الى نوع من الذكاء الساخر الذى لا يخلو من بعض القسوة ••

ــ اذا اقترف الطفل تسع سيئات فان نتائج خمس منهـــا ترتد عليه ••

ــ اذا حاول الطفل التمارض ، وادعى الموت فعليك أن تتظاهر بدفنه ••

ــ لا ينشأ الطفل الناجح على فراش لين من الورق • وفى حكم الاكانين وأمثالهم أمثال أكثر سخرية عن الفقر والغنى منها :

— لا يتناقل الناس — أبدا — أقوال الفقراء المأثورة .

— يفصل فى قضية الرجل الفقير فى جلسة قصيرة ..

— تختصر دائما « كل » الاثام التى يقترفها رجل غنى ..

— عندما يسكر رجل غنى .. لا يقال عنه سوى انه معكر المزاج ..

*** نظريتهم فى الحكم :**

يستمد الملك الاكانى سلطانه كله من الشعب .. ولهذا فكثيرا ما تصدر قرارات الحاكم على لسان الشعب وباسمه .. ولما كان الملك يمثل « الوحدة الروحية » للشعب فقد كان فى الامكان خلع الملك على شرط أن تقدم أولا أسباب هذا الخلع..

فالملك الذى يصر على تقديره « الشخصى » للأمور دون الاستماع لآراء مستشاريه أو الذى يظلم أو يرتشى أو يستغل نفوذه مع نساء القبيلة يقال عنه — فى لغتهم — انه ملك لا يستطيع أن يشرب الماء مع شعبه ..

أى يجب خلعه ..

ولكن عملية الخلع لا تتم — هكذا بسهولة — فلابد أن تقدم الأدلة لشيوخ القبيلة .. وتفحص جيدا .. وقد تعقد بعدها محاكمة سرية لا يحضرها الملك .. ولا ينحى الملك الا بقرار « جماعى » من الشيوخ وحكمائها ..

ويأتى بعد الشـيوخ الوزراء وهم الذين يتولون الادارة السياسية فى مجتمع الاكان •• وهؤلاء ينتخبون ويوزعون على مهام متخصصة لادارة مهام دولة الاكان •• وحول الملك نرى موظفين لهم مهام غريبة ••

منها « الاكيارميهيون » وهو الناطق بلسان الملك اذ أن الملك لا يصح أبدا أن يتخاطب مباشرة الى شعبه •• وحامـل الصولجان الذى يتخصص ــ هو ومساعده ــ فى حمل صولجان الملك فقط ••

ثم حفار قبور الملك •• وهؤلاء مسئولون عن الحفرة التى تعلق فوقها جثث الملوك الموتى مدة ثمانين يوما حتى تجف نهائيا ويتم نقلها الى المدافن الملكية ••

ودولة الاكان مستقرة تماما ، ولا تعرف الفتن والاضطرابات اذ ان الاجراءات السياسـية بها « ودية » خاصة وأن السلطان فيها يتم اختياره ويمكن عزله •• وبهذا لا يستطيع أن يظلم طبقة من الطبقات دون أن يتعرض لغضب شيوخ القبيلة ومحاكماتها السرية والعلنية •• ولذلك كان مجتمع الاكان مجتمعا ديمقراطيا تسـوده العدالة •• ولا يستمر فيه حـاكم أحمق أو ظـالم أو فاجر ••

النظام القضائى

الملك ومستشاروه ، هم الذين يقومون بوظيفة القضاء فى « دولة » الاكان •• ولما كان المجتمع بسيطا •• فلا يوجد فى نظر القضاء فرق كبير بين المخالفات المدنية والجنح الجنائية •• ويمكن أن يحول الخصم القضية من جنحة جنائية الى مجرد مخالفة مدنية اذا أقسم اليمين على صحة كلامه •• ولا يوجد فى هذا المجتمع سجون أو عقوبة بالحبس فالعقوبات لا تعدو الموت أو الغرامات ••

وكان يسمح للقاتل المحكوم عليه بالاعدام أن ينفذ الحكم فى نفسه عن طريق التفجير أو اطلاق الرصاص على نفسه ••

وتتم عقود الزواج بدفع المهر •• وعندما يكتشف الأهل أن احدى فتياتهم فقدت عذريتها ـ قبل الزواج ـ فهذا سبب كاف للطلاق واستعادة المهر •• على أساس ان الزوجة « تعاقدت » مع العريس على بيانات « خاطئة » ••

أما اذا ثبت كذب الزوج •• فمن حق الأهل استدعاء العريس ومطالبته بالتعويض على الاضرار التى لحقت بالفتاة ••

والزنا ـ فى قوانين الاكانيين ـ تعتبر « جنحة » بالنسبة للمرأة المتزوجة فقط ويتعرض رفيقها الى الغرامة •• وفى وسع

الزانى أن يحتفظ برفيقته الزانية كزوجة له على شرط أن يدفع تعويضا مناسبا للزوج « الذى أسيىء له » !! ويشمل هـذا التعويض قيمة المهر •• والنفقات التى تحملها عن زوجته حتى يوم « الحادث » !!

وقد حدث ان استغل أحد الخبثاء من قبيلة « اكواموا » هذا القانون •• فتزوج عددا كبيرا من نساء القرى التى زارها ثم غاب عنهن عاما كاملا •• وعندما عاد أخذ يجمع التعويضات « الحتمية » عن زوجاته « الخائنات » وكانت كثيرة ••

المنتصر يعود باذن

❋ التنظيم العسكرى :

أما الشئون العسكرية عند الاكانيين فهى تدار تحت اشراف قائد أعلى يكون ـ عادة ـ من بين كبار المحاربين القدامى •• وهو مسئول عن تنظيم واعداد الجيش لحالة الحرب وتعيين الضباط وتنظيم القوات المحاربة ••

والى جانب هذا القائد محارب آخر يطلق عليه « قائـد الخطط العسكرية » •• وهو الذى يضع الخطط للحمـلات

الحربية ، ويكون مستشارا للقواد فى رسم العمليات الحربيـة وتنسيقها ..

وكان « الاكانيون » يقودون جنودهم على شكل طائرة جناح أيمن وأيسر والقائد فى الوسط والملك فى المؤخرة .. وهو غير مسئول عن الحملة حتى لو اشترك فيها فعليا .. وكل وحدة عسكرية مسئولة عن تموين نفسها .. ومدعمة بكل ما تحتاجه من الأسلحة ومن أطبـاء الميدان .. فالانضباط صارم وعقوبة التراجع فى معظم الحالات هى الموت ..

وكان فى وسع الاشـاتنى وهم خير محـاربى الاكان أن يدفعوا الى المعركة بنحو مائة ألف رجل فى وقت واحد .. وكان جيشهم يؤلف منظرا براقا حتى وهو فى الميدان .. فلكل مجموعة عملها الخاص وعندما يرافق الشيوخ الجيوش نراهم يجلسـون تحت مظلاتهم الحريريـة الكبيرة الملونة والموشحـة بالخيوط الذهبيـة ..

واذا ما انتهى القائد من مهمته الحربية فليس فى وسع القائد أن يعود الى العاصـمة الا باذن من الملك .. فان ذكاء ملك الاشاتنى يجعلهم حـذرين من رجوع قـادة الجيوش المنتصرة ..خوفا من غرور القادة .. والطمع فى كرسى العرش فاذا عاد ــ بعد أربعين يوما من الاذن ــ كان ذلك فى شـبه عرض عسكرى أمام الملك .. وكان على كل وحدة أن تطلق فى

الهواء الرصـاص عندما تمر بالملك •• اظهارا للولاء للحـاكم الفعلى •• ملك القبيلة وحكيمها المقدس •• وكبيرها •• مهما كانت درجة انتصارات القادة ••

※ تفكيرهم الأدبى :

ويعكس الفكر الأدبى لبعض أدبائهم حياة الاكانيين الملتصقة بالطبيعة ويعكس ــ أيضا ــ مزاجهم الحزين فالبسمة ــ دائما ــ تعبير عما يجثم على صـدورهم من ضيق •• ولاشك ان هـذا الارث الحزين يجد منبعه فى نظرتهم الغيبية للأمور فاعتقادهم القائل بان الناس والأرواح عالم واحد يحقق قدرا واحدا لايمكن أن يؤدى الى شىء من الانتعاش النفسى والاشراق الفكرى •• وقد تجسدت هذه النظرة الحزينة فى أفكارهم •• التى تنطوى على شىء من الاجلال والرهبة للقضايا الروحية •• وعلى الجدية الكاملة فى معالجة سير الأحداث اليومية •• وعدم الانبهـار أو ــ الانتشاء ــ بكل ما يحدث فى الحيـاة الدنيوية •• فهى حياة مؤقتة فى النهاية •• جسر الى حياة الأرواح الخالدة ••

※ انعكاس القديم :

من هذا النموذج القديم للفكر القبلى يمكننا أن نستنتج بعض ما يمكن أن يصيبه هـذا الفكر من تأثيرات سلبية أو ايجابية فى اطار الحياة الحديثة التى تتطلع اليها افريقيا ••

فمثلا نظرتهم « الغيبية » للحياة اليومية وسيطرة القوى الروحية على تصرفاتهم قد تعترض النظرة العلمية فى حل مشاكل التخلف عن طريق الاحصاء والتخطيط .. بل قد تعترض التفسير العلمى لهذه المشاكل ..

كما أن الارتباط الأسرى بالعشيرة وما يتعلق به من الخوف والرهبة .. والتقديس لأوامر الشيوخ الكبار قد تقف عقبة فى محاولات الحكومات الافريقية فى اذابة هذه « المشاعر المحلية » .. وادماجها فى داخل « المشاعر القومية » للدولة ..

وعلى العكس من ذلك .. فقد نرى فى نفس هذا الفكر ما يتمشى مع النظرة الحديثة للأمور ..

ففلسفتهم فى تكوين الجهاز الحاكم تقترب كثيرا من المفهوم الديمقراطى .. انه يحكم باسم الشعب .. وسيصل الى الحكم عن طريق الانتخاب .. و .. يمكن — فى حالة الخطأ — عزله ..

كما أن تنظيماتهم العسكرية الدقيقة .. تسهل على الحكومة ادراجهم فى سلك النظم الحربية الحديثة .. ويصبح التغيير بالنسبة لجنود القبيلة هو مجرد تغيير فى « الشكل العسكرى » لا فى المضمون ..

من هذا نفهم أن الفكر القبلى فى بعض البلاد الافريقيـة الحديثة ــ مثل غانا ــ لا يشكل دائما عقبة أمام النظرة المعاصرة لمشاكل التخلف ، ومحاولات التغيير باتباع الأساليب التكنولوجية الحديثة ، بقدر ما يكون فى كثير من الأحيان عاملا مساعدا فى عملية التغيير ذاتها ..

●●

المشهد رقم (٨)

عندما شعرت ((البرد)) فى جهنم خط الاســـتواء

عشت على خط الاستواء نفسه أكثر من ثلاثة أسابيع •• ولم أشعر يوما واحدا بمثل تلك الحرارة التى نعيشها أحيانا فى القاهرة أو السعودية فى الصيف وعلى العكس ••فقد ارتجف جسدى أكثر من مرة من « برودة » المنطقة الاستوائية ••

ولهذا •• فقد كدت أموت من الغيظ ــ ذات مرة ــ وأنا استمع الى مذيع تليفزيونى يقول •• تعليقا على التدريبات التى يمر بها رجل الفضاء •• أن رجل الفضاء عليه أن يتدرب داخل جهاز معين على درجة حرارة عالية •• كتلك التى يتعرض لها سكان خط الاستواء !!

ثم قال حضرته انها تصل الى ٤٧ درجة مئوية ••

كنت أود أن يزور سـيادته معى فى المنطقة الاسـتوائية ليعرف بنفسه ان درجة الحرارة هناك ثابتة ولا تزيد « اطلاقا » على ٣٦ درجة مئوية ••

وكنت أود أن يكون معى فى الطائرة التى حلقت بى فوق المنطقة الاستوائية ذاتها •• وان يهبط معى بنفس الطـائرة فى مطار « ليبرفيل » وهى مدينة على خط الاسـتواء ذاته ليرى بنفسه الناس هناك •• وكيف يمشون فى الشوارع بملابس كاملة وثقيلة •• ولا يحس معهم بنصف الحرارة التى كان يشـعر بها وهو يذيع هذا الكلام ••

بل كنت أود أن يـكون حضرة المـذيع معى فى مطـار لاجوس ـ وهى مدينة فى المنطقة الاستوائية ـ ليرى كيف صعدنا وسط جو عاصف بارد ممطر وبالبدل الكاملة فى الطـائرة العربية المتجهة الى القاهرة •• ثم •• ليرى كيف أن ركاب هذه الطائرة لم يخففوا ملابسهم الا بعد أن تجـاوزت الطـائرة المنطقـة الاستوائية •• الى تشاد وليبيا ••

ثم كيف أننا جميعا وددنا لو خلعنا ملابسنا تماما عندما هبطت الطائرة بنا فى مطار القاهرة الدولى •• فقد كان الوقت صيفـا ••

ولكن •• لمـاذا أحاول ادعاء المعرفة •• وأتحامل على

صديقنا المذيع .. ولقد وقعت أنا فى نفس الخطأ بصورة أكثر سذاجة ..

حر .. وبرق .. ورعد .. ومطر

كان ذلك عندما دخلت الباخرة التى تحملنى الى الكونغو وتقترب فى بطء من خط الاستواء .

قال لى قبطان الباخرة .. سنمر بعد ساعات على خط الاستواء ..

قالها فى لهجة مليئة بالفخر والسعادة لم أجد تفسيرا لهما فسألته :

ــ وما هو سر سعادتك ؟

قال الرجل بلهجة أكثر فخرا :

ــ انها لحظات تذكارية يا صديقى .. ويكفى أن تعرف أن شركات الطيران العالمية تعطى ركابها شهادات عبور خط الاستواء كلما مرت طائراتها من فوق هذا المكان ..

وهززت رأسى بلا مبالاة .. ليس لأنى عبرت هذا الخط أكثر من مرة ولكن لعدم قدرتى على مشاركة سعادته .. لأننى كنت خائفا فعلا من عبور هذه المنطقة فأنا لا أطيق الحر .. ولا أستطيع تحمله .. كان لدى اعتقاد ــ حسب ما سمعت ــ اننى ساصاب بضربة شمس .. أو شىء من هذا القبيل .. وكنت أخاف المرض فى هذه المنطقة النائية بالذات ..

و •• أعددت نفسى تماما لجميع الاحتمالات « الحارة » خلعت جميع ملابسى •• ووقفت تحت الدش البارد لمدة ساعة كاملة •• حتى تبرد دماء الدورة الدموية فى جسدى ••

وذهبت الى كابينتى •• وفتحت النافذة والباب على مصراعيه •• ونمت على السرير بالمايوه فقط بعد أن سلطت المروحة المدارة بأقصى سرعتها على جسدى ••

و •• انتظرت ••

وعندما اقتربنا من خط الاستواء كنت اعتقد أن جسدى « سيسيح » من الحر ولكن عندما مرت الباخرة تماما فوق خط الاستواء ظل جسدى تماما كما هو •• أما الذى « ساح » فعلا فهى كل المعلومات التى قرأتها فى كتب الجغرافيا عن هذه المنطقة ••

لقد كان احتكاكى بمناخ خط الاستواء احتكاكا مثيرا ومبهرا ••

فبدلا من الشمس •• كانت السحب الكثيفة تغطى كل الأفق ••

وبدلا من الحر •• كانت نسمات الهواء الباردة قوية ••

لقد اختفت الشمس تماما •• وكانت السماء ملبدة بتلك السحب السوداء الثقيلة التى لا نراها الا فى سماء أوربا • ثم كان

الرعد العنيف الذى ينافس آصـوات القنابل الثقيلة •• والبرق الذى « يزغلل العيون » •• ثم ذلك المطر الكثيف الذى لم أشهد له مثيلا فى حياتى •• وبدأ الهواء البارد الثقيل يتسـلل فى عنف الى كابينتى •• وأحسست اننى ساصـاب بالتهـاب رئوى •• ان لم أسرع وارتدى ملابسى ••

وكان منظر المطر غريبا •• لقد استطاع من غزارته •• ان يحجب عنى الأفق •• وأحسست ان مياه المحيط تكاد ترتفع الى الضعف وتغطى شـاطىء قارة افريقيا الذى كنت أراه عن بعد •• واستطعت أن أقتنع لأول مرة كيف تتكون الأنهـار الكبرى •• فلم تكن أمطار القاهرة ولا الاسكندرية تقنعنى أن فى امكانها تكوين ولو ترعة صغيرة ••

هنا الطبيعة بكل عنفوانها وقسوتها ••

هنا •• وهنا فقط يمكن أن تتكون الأنهار ••

هنا •• يبدأ كل شيء فطريا •• عربيدا عنيفا ••

هنا يمكن أن يبدأ نهر النيل هادرا •• ثم ينتهى الينا •• أكثر رقة وهدؤا •• ونعومة ••

وأفقت من خواطرى لاكتشف وكأننى أقف على شـاطىء الاسكندرية فى عز الشتاء !!

أين الحر ؟ •• أين ضربـة الشمس ؟ •• أين جهنم خط الاسـتواء ••

ووجدت صوتا خبيثا ساخرا .. يرد على أسئلتى الحائرة..

لقد هربت جميعا لتستقر فى كتب الجغرافيا ..

و .. شغلتنى فعلا هذه المسألة .. كيف أكون فى خط الاستواء وفى فصـــل الصيف ولا أشعر حتى بربع ما أشعر به من حرارة صيف القاهرة ..

مقلب استعمارى

وقال بعض المؤمنين بكتب الجغرافيـــا .. ان معظم المدن التى تمر بها موانىء مما يخفف من حرارة الجو ..

وتعمدت زيارة « لا جوس » فى نيجيريا و « برازافيل » فى جمهوريـــة الكونغو وهى مدن تبتعد كثيرا عن البحر وتمر بمنطقة خط الاستواء ولم أعثر على الحر ..

وقال لى بعض خبثاء السياسة ــ الذين احتاروا مثلى فى حرارة خط الاستواء ــ يبدو أن أول من كتب عن مناخ خط الاستواء ــ كانوا كالمبشرين لهم ميول استعمارية .. لقد أرادوا أن يخيفوا الناس من حرارة هذه المنطقة وجاءوا هم ليعيشـــوا هنا وسط هذه الجنة التى نراها والا لمـــا استطاعوا بناء هـــذه

المدن الضخمة وأن « يتمتعوا » بين ربوعها هذه المدة الطويلة..

ولم اقتنع بهذا التفسير ..

حتى التقيت بأحد علماء الجغرافيا « المحايدين » فى جامعة لاجوس بنيجيريا ..

قال لى الرجل :

ــ الواقع ان علماء الجغرافيا عندما قرروا ان هذه المناطق أشد المناطق حرارة فى العالم كانوا مبالغين بعض الشيء.. وقد انطلق كلامهم هذا من خلال حقيقة واحدة .. وهى اقتراب قرص الشمس من الأرض فى هذه المنطقة أكثر من أى مكان .. ولكن اقتراب قرص الشمس هنا يزيد من درجة تبخير مياه المحيطات .. فتتكون السحب هنا بشكل كثيف مما يحجب الشمس وحرارتها عن الناس طوال شهور السنة ..

هذه واحدة ..

والثانية .. الأمطار التى تتساقط باستمرار فى هذه المنطقة من هذه السحب، تتسبب فى انخفاض درجة الحرارة الى درجة كبيرة .. والعامل الثالث .. هذه السحب والأمطار .. تتسبب فى انبات هذه الغابات الكثيفة مما يزيد من مساحة الظلال التى تساهم فى تخفيض درجة الحرارة ..

أما المناطق التى تبعد عن المنطقة الاستوائية فهى أقل حرارة

فعلا •• ولكن الشيء الوحيد الذى يضاعف من درجة حرارتها – أكثر من خط الاستواء – هو وجود مناطق صحراوية شاسعة بجانب مدنها مثل ما هو حادث فى القاهرة ومكة وأسوان مثلا ••

وكان هذا هو الكلام المقنع الوحيد الذى سمعته عن هذه الظاهرة الغريبة فى خط الاستواء ••

البلاجات خالية

اذن فمنطقة خط الاستواء – حسب كلام العالم – ليست منطقة حارة ••

والدليل الواقعى على ذلك •• هو بلاجات خط الاستواء••

انها دائما خالية من الافريقيين •• ولو انهم شعروا فعلا بحرارة بلادهم طوال هذه القرون التى عاشوها لكانوا أول من كونوا البلاجات الجميلة••وخاصة أن خيرات بلادهم••وامتلاء غاباتهم بكل ما يحتاج اليه الانسان من وسائل العيش جعل لديهم فراغا هائلا •• وهذا الفراغ كان سيدفعهم بلاشك الى أن يكونوا أول المجموعات البشرية التى تعرف طريقها الى البحر والبلاج ••

ولكن الذهاب للبلاجات فى افريقيا ما زالت عادة أوربية..

والافريقى لا يذهب الى البلاج ، أو يلبس المايوه الا اذا كان متزوجا من أوربية وهو يذهب هناك كارها وتحت ضغط الرغبة فى ارضائها وغالبا ما يجلس هو تحت الشمسية ليحرس ملابسها ويتمتع بمشاهدتها وهى تسبح بمهارة بين أمواج المحيط العنيفة ..

وكذلك الافريقيات .. رغم انهن يخلعن نصف ملابسهن فى المدن وفى مكاتب العمل لتعودهن على الحياة المنطلقة فى الادغال والمناطق الواسعة فانهن لا يذهبن الى البلاج الا بالملابس الكاملة و .. للفرجة فقط ..

لقد زرت بلاج داكار فى السنغال .. وبلاج أكرا فى غانا وبلاج بوانت نوار فى الكونغو برازافيل . كما زرت حمامات سباحة فى برازافيل ونيجيريا ..ولم اشاهد افريقية واحدة تلبس المايوه ..

وكنت اعتقد بعقليتى الشرقية ان السبب هو التقاليد أو الرغبة فى التحشم ..

ولكن ملكة جمال نيجيريا همست فى أذنى بشىء آخر تماما ..

قالت : ان الفتاة الافريقية لا تحب الملابس الضيقة بوجه

عام .. ولا تحب أن يختنق جسدها ــ عند الاستحمام بأى نوع من الملابس حتى لو كان المــايوه البكينى ..

كما أنها لم تتعود أبدا الاستحمام فى المياه المــالحة ولأنها بفطرتهــا وجدت أنه يضر بشرتهــا التى تهتم بالمحافظــة على نعومتها .. وسكتت ملكة جمال نيجيريا ثم قالت :

ــ ان متعة الاستحمام الحقيقية لدى الافريقية مازالت تنبع من الفطرة ومن الطبيعة ..

وتظاهرت بالغباء وتساءلت قائلا :

ــ يعنى ايه ؟

فقالت ضاحكة :

ــ أنها مازالت تفضل أن تستحم عارية فى ميــاه الأنهار العذبــة ..

رحلة الى خط الاستواء

ولكن هل هناك ــ فعلا ــ خط استواء ينتصف العالم .. بالطبع جغرافيــا .. الاجابة نعم وهو خط وهمى .. يضعــه الجغرافيون على الخرائط ولكن ما فوجئت به فعلا .. وأنا أزور كمبالا ونيروبى ــ وهما بلدان يقعان فعلا قرب خط الاستواء..

أن الجغرافيين يضعون هذا الخط فعلا •• وبدقة متناهية ••
في ضواحي العاصمتين •• وقد رأيت كثيرين من زوار
العاصمتين •• يزورون هذه المنطقة••لمشاهدة خط الاستواء••
على الأرض فعلا ••

وعلى الفور طلبت من مرافقي •• أن يعد لنا رحلة الى
خط الاستواء ذاته •• أي الى منتصف الكرة الأرضية ••

بعد حوالي ٤ ساعات بسيارة جيب •• توقف بنا الرجل••
فاذا بنا أمام خط أبيض ينتصف طريق أسفلتي •• وفي طرفي
الخط دائرتين يبدأ عند منتصفهما بالضبط هذا الخط ••

كانت لحظة نادرة •• عندما شعرت أنني أقف فعلا على
خط الاستواء •• فوق هذا الخط •• تشعر أن قدميك يقفان
وسط الكرة الأرضية •• بل انك عندما تجعل خط الاستواء
هذا يمر بين قدميك ، فسوف تشعر أن نصفك في شمال
الكرة •• والنصف الآخر في جنوبها ••

وهذا ما يفعله معظم زوار نقطة خط الاستواء •• انهم
يضعون قدما شمال الخط وقدما جنوبها •• ثم تلتقط الصورة
النادرة الوحيدة •• الذي يستطيع بعدها أن يقول لأقرانه عند
العودة •• هذه صورتي أقف فيها وسط الكرة الأرضية
بالضبط ••

انهم يقطعون الاف الأميال •• من أجل هذه الصورة

الشخصية النادرة .. ولكننا كنا أكثر حظا .. فقد قطعنا بضع عشرات من الكيلو مترات .. لكى ننقل لك أول صــور عند خط الاستواء .. فقد كنا قريبين منها فى أوغندا وكينيا ..

فى أحراش افريقيا الاستوائية

ولكن بعيدا عن خط الاستواء نفسه ..

فليس هناك .. أى منطقــة فى الدنيا تضــارع افريقيــا الاستوائية .. فى فطرتها .. ووحشية أدغالها .. وقمم جبالها المغطاه بالثلوج .. الى جانب أنهارها العارمة .. وأشجارها العملاقة المعبقة بروائح البخار الممزوجة بعطر نباتاتها المتسلقة ..

وفى غابات الكونغو برازافيل .. التى اخترقت وســطها على ظهر باخرة .. تمضى عبر نهر الكونغو كنت لا ألمح ـ من خلال النافذة ـ سوى عدد ضئيل جدا من المواطنين .. والغريب أننى مررت بأقزام لا يزيد طولهم عن مائة وعشرين سنتيمترا .. وأحيانا عمالقة يزيد طولهم عن مترين .

وعلى طول الطريق كنت اشــهد طيور « قــاق المــاء » و « العجاج » و « البلاشون » الأسود الرأس .. الى جانب طيور مفترسة كالنسر الأسود ، والصقر البنى الذى يعيش على اصطياد الخفافيش ..

وخلال الرحلة ــ أيضا ــ كنت ألحظ على أرض الغــابة الطينية آثار أقدام أفيال •• وهو أحد الثروات الهامة لسكان الغابة •• أحيانا يصيدونه من أجل أنيابه •• وأحيانا أخرى يذهبون لمقبرة الأفيال •• حيث يذهب لها الأفيال من تلقــاء أنفسهم عندما يشــعرون بدنو آجالهم حتى يلفظوا أنفاســهم الأخيرة •• فى صمت بجوار أجدادهم العظام ••

أحيانا كنت اشهد بعض النمور ترقد فوق فروع الأشجار فى سلام •• بعد رحلة عنيفة من القنص •• أو أســد يصحب وليده للشرب فى وداعة من أحد المنابع •• والغريب أننى كنت اشاهد بعض الأطفال فى الغابة •• يستحمون ويلهون بجوار مثل هذه الحيوانات المفترســة •• وعندما سألت أحد الافريقيين فى الباخرة •• عن سر عدم خوفهم من هذه الحيوانات المتوحشة •• ذكر لى عدة حقائق جديدة ••

* ان احدا لا يخاف الأسد •• لانه لا يرهق نفسه وراء عملية صيد •• فاللبؤة ــ زوجتــه ــ هى التى تقوم بهــذا العبء •• أما هو ــ كملك ــ فان الضحيــة توضــــع بين قدميــه ••

* أخطر ما فى الغابات الاستوائية •• هى الغوريللات •• صحيح انها لا تأكل اللحم •• ولكنها غبية •• وأحيانا تهــاجم الانسان فى غفلة منه •• وكل ما تفعله هى انها تحتضنه فقط ••

فتكسر قفصه الصـدرى حيث يموت بعد أيام أو شـهور ..
حسب درجة « حرارة » الحضن القاتل ..

* أقوى حيوان داخل الغابة وخارجها الجاموس الوحشى
ولا يقتل الفيل داخل الغابة .. سوى أسراب النمل التى تمضى
بالملايين .. واذا تصـادف وداس على أحد هذه الأسراب بقدميه
الغليظة .. كما لا يقتل الجاموس الوحشى خارج الغابة سوى
الانسان .. بذكائه ورصاصه ومتفجراته ..

* ومن أخطر حيوانات أحراش افريقيا النمر الأرقط ..
وهو يعيش فى المناطق العميقة فى الادغـال .. وهو بعـكس
الأسد ــ حيوان انفرادى يندر ان ينتقل كالأسد فى جماعات ــ
واذا هاجم نمر الأرقط فانه يقاتل حتى النهاية .. وبشراسـة
مخيفة .. ولهذا يتجنبه أهل الغابة دائما ..

وعندما سألت رفيق الباخرة عن الأقزام والعمالقة الذين
شاهدتهم قال لى هـذه الأقزام منتشرة فى غابات الكونغو ،
ويطلق عليهم « تيكى تيكس » .. ولا يزيد وزن الواحد منهم
عن ٣٦ كيلو جرام .. والنساء ٣٠ كيلو جرام .. عندما يولد
الطفل يكون نحيلا فى حجم الأرنب .. ومع ذلك فهم ــ طبيا ــ
مكتملوا النمو .. وهم ينحدرون من سكان افريقيا الأصليين
ولون جلودهم بخـلاف جيرانهم العمالقـة ورغم قصر قاماتهم
فهم معروفون بالمرح والشجاعة .. وهم جوالون .. من النادر

أن يمكثوا فى معسكر واحد •• وكان جيرانهم العمالقة ـ مترين فأكثر ـ يستخدمونهم كعبيد •• أو يدفعون بهم الى الغابات للصيد •• فهم لا يعرفون الغرس أو الزرع وهم يخشـــون أى غريب ـ ويختفون فى ثوان •• اذا اقتربت منهم قدم أجنبى •• ولا أحد يستطيع ملاحقتهم لانهم يسلكون فى الغابة طرقـــا ملتوية ضيقة لا تتسع الا لأقدامهم •• وأجسامهم الصغيرة ••

ومعسكرات الأقزام لا تحتوى على أى أثاث ـ فالسراير مجرد أوراق موز مفروشة على الأتربة •• وليس لديهم آنيـــة للطبخ •• فطعامهم يؤكل اما نيئا أو مشويا •• وكل ما يملكه هؤلاء الأقزام هى الأقواس والسهام والرماح ••

وعند الانتقـــال فهم لا يحملون ســوى الصغـــار الذين لا يحتملون المشى •• ولهم مهارة « النسانيس » فى الانتقال على قمم الأشجار •• وهم يظلون كذلك •• لمسافات شاسعة دون أن تلمس أقدامهم الأرض ••

ومن غرائب « طاقات » هؤلاء الأقزام •• انهم رغم صغر حجمهم ففى استطاعة الواحد منهم التهام سباطة موز من ٦٠صابع فى وجبة واحدة •• وهم مولعون بالملح لأن الادغال لا تحوى سوى المياه الحلوة ••

ورغم أن حياتهم قاسية وغير محتملة •• فهم قوم مبتهجون ويطلقون على أنفســهم « الصغار » ويشــيرون الى جيرانهم

الافريقيين بأنهم « الناس الحقيقيون » وجيرانهم من قبـائل « مانجبتو » وأنوس يعتبرون مردة بالنسبة لهم .. حيث تتراوح قامتهم بين مترين ومترين وعشرة سنتيمترا .. وأجسام العمالقة برونزية اللون .. ويرتدى الرجال مآزر مخططة باللون الأسود والأبيض والبنى .. فى وسط حزام من الجلد .. أما النسـاء فبعضهن لا يهتم بتغطية صـدورهن ـ وخاصة قبائل الماساى فى كينيا والبعض يغطين .. وتغطى رءوسه حلية سـمكية من سلوك النحاس اللامع ..

ومن أغرب ما تفعله أمهات قبيلة « مانجيو » انه عندما يولد لهن طفل .. يربطن رأسه بالياف محكمة حول رأسه .. وتزيدها الأم ـ احكاما ـ كلما تقدم طفلها فى العمر .. وعندما يصل الطفل الى البلوغ يكون رأسه قد أخذ شكلا بيضـاويا غريبـا ..

ويدعى حكماء القبيلة ان هذا التشكيل .. يضع المخ فى وضع .. يجعل الطفل أكثر ذكاء ..

هكذا يعتقدون .. والعادة مازالت مستمرة لأنها لا تؤلم الطفل فهى تحدث تدريجيا .. ولا تثير صراخ الأطفال ..

المشهد رقم (٩)

نصف غرب أفريقيا .. مسلمون

صليت العيد فى السنغال ، وحضرت الجمعة فى غانا ..

وعشت مع ٥٠ مليون مسلما فى نيجيريا ، واكتشفت عشرات المـآذن وألوف المسلمين فى الكونغو ، حدث كل هـذا بينما كنت أعتقد أننى أزور بلادا لا يعيش بها مسلم واحد ..

ولكن هذه هى الحقيقة ..

لم يخطر ببالى ـ ولو للحظة واحدة ـ أن ذلك المبنى .. العظيم المرتفع .. الناصـع الذى أراه من شرفة باخرتى .. وهى تقترب لأول مرة من شواطىء افريقيا عند مدينة داكار .. « هو » مئذنة جامع ..

بل .. لم يخطر ببالى أننى سألتقى طوال رحلتى بغرب افريقيا بمسلم واحد ..

وكانت كل معلوماتى •• عن الفتح الاسلامى انه وصـــل أقصى منتهاه الى جنوب فرنســا غربا والى الهند وبعض بلاد جنوب شرق آسيا ••

أما فى افريقيا فلم أكن أسمع عن مسلمين سوى فى السودان والصومال وزنزبار قبل أن تتحد مع تنجانيقا ••

وكانت دهشتى أكبر عندما رست الباخرة فى الميناء الأنيق « داكار » •• والتف بعض الافريقيين حول الباخرة ، وعندما علموا انها قادمة من مصر •• بلد الأزهر الشريف •• صــعدوا فى لهفة غير عادية •• وكانت أول كلمة قالوها لنا بلغة عربيــة ســليمة :

ــ السـلام عليكم ••

وعندما ذهبت ــ فى اليوم التالى ــ لزيارة محمد يحيى حسن سفيرنا هناك وأعربت له عن دهشتى فاجأنى قائلا :

ان البلد الذى تزوره الآن ــ السنغال ــ ٩٠٪ من آهله مسلمون وعلمت بعد مقابلتى مع السفير أن :

ــ ٥٠٪ من غرب افريقيا مسلمون ••

ــ ٩٠٪ من موريتانيا ومالى والسنغال مسلمون ••

ــ عدد المســلمين فى نيجيريا ــ وحدها ــ ٥٠ مليون مســلم ••

ــ أن الاســلام وصــل فى زحفه جنوب غرب افريقيا الى الكونغو ليوبولدفيل •• « كينشاسا »

التجار .. والمرابطون

ومن خلال مقابلاتى مع زعماء المسلمين فى غرب افريقيا .. علمت أن الاسلام دخل الى هذه المناطق عن طريق تجار شمال افريقيا الذين كانوا يقومون برحـلات تجارية الى السنغال وغانا وغينيا .. وكان الاسلام فى هذه الفترة ينتشر بطيئا عن طريق الاحتكاك اليومى بين هؤلاء التجار وبين أهل هذه البلاد ..

وعندما قامت دولة المرابطين ــ من قبائل المغرب البربرية ــ تغير شكل الدعوة للاسلام من مجرد الاحتكاك اليومى التلقائى.. الى الاحتكاك المنظم المتعمد لنشر الدعوة عن طريق (الدعـاة) أولا .. والفتح ثانيا ..

ولكن من هم المرابطون ؟ ..

بدأت قصـة المرابطين .. عندما شعرت قبـائل البربر المغربية بضرورة الوحدة تحت زعامة دينية قوية تقف فى وجه القوة الوثنية التى تسيطر على امبراطورية (غانة) الوثنيـة وتتمكن من نشر الاسلام فى افريقيا ..

وبعد نزاع طاحن استولت قبيلة (جذلة) على القيـادة وعاد أميرها (يحيى بن ابراهيم) من الحج مصطحبا معه أحد دعاة الحجاز ويدعى (عبد الله بن ياسين) ليقوم بتفقيه القبيلة..

وكان هــذا الرجل شعلة من الحماس •• وعلى قدر كبير من العلم والذكاء ••

ورغم اخلاصه فى الدعوة فلم يلق الرجل نجاحا يذكر بين أفراد القبيلة فانسحب مع بعض اتباعه ومريديه الى الجنوب ، وأقام فى جزيرة على مصب نهر السنغال سماها (الرباط) ••

ومن هذه الجزيرة بدأ يرسل اتباعه الى أدغال افريقيــا لنشر الدعوة الاسلامية خاصة بين القبائل الوثنية ••

وعاش بن ياسين فى هذه الجزيرة حيــاة الزهد والورع فتآلف الناس حوله ، وذاعت شهرته ، واتخذ لنفسه ولاتباعه لقب المرابطين •• (أى أهل جزيرة الرباط والعاملين بمبادئه) ••

وقد ظل المرابطون يعملون على نشر الدعوة وتفقيه الناس بأصول الاســلام وما ان اكتملت قوتهم وأحس (بن ياسين) بترابط أنصــاره حوله حتى هاجم مملكة غانا عام ١٠٥٦ •• وأعلن الجهاد ضد الوثنية ، وانضمت القبائل الافريقية الى دعوته وأسلمت على يديه ••

وبينما كان (بن ياسين) يقود احدى المعــارك الطاحنة استشهد وانفرد أحد أنصــاره بالزحف نحو الشمال ، وبهم استطاع (يوسف بن ناشفين) تأسيس (دولة المرابطين) فيما بعد بينما قام تلامذته بمحــاصرة (كومبى) عاصمة غانا عام ١٠٧٦

ثم فتحوها وأسلم عدد كبير من أهلها كما أسلم ــ باختياره ــ ملكها « تانكامنين » ، وظل المسلمون يحكمون هذه الامبراطورية ويحولون فكرها الدينى من الوثنية الى التوحيد حتى عــادت الخلافات القبلية الى صفوف المرابطين فانتهزت (غانــا) الفرصة وطردتهم من العاصمة عام ١٠٧٨ الا أن تأثير الاسلام كان قد تغلغل فى غرب افريقيا •• وانتشر بين الملايين ••

المهم ••

هكذا دخل الاسلام الى افريقيا ولم يجد الفكر الاسلامى صعوبة كبيرة فى الانتشار هناك لسببين :

*** الأول :**

ان القيم الوثنية التى تعتمد على الخرافة والوهم والأساطير والقوى الخفية لم تستطع أن تقف أمــام « واقعية » الاسلام ووضوحه وبساطته ••

*** الثــانى :**

ان تعاليم الاسلام كانت قريبة من آمال الســـود وآلامهم بل كانت قريبة من عاداتهم وتقاليدهم •• فتحريمــه الرق •• ودعوته للمساواة •• وللعدالة الاجتماعية و •• و •• غيرها من المبادىء •• كانت تجد صدى فى نفوسهم ••

ماذا بقى من الاسلام

والسؤال الآن :

بعد هذه السنين الطويلة من « الوجود الاسلامى » فى افريقيا •• ماذا بقى من الاسلام فى اذهان الافريقيين ؟ ••

الواقع أن هذا السؤال قد قفز الى ذهنى بعد أن اتيح لى أن أحضر صلاة العيد فى داكار •• شاهدت ألاف المسلمين يحضرون بملابسهم البيضاء المعطرة النظيفة يصحبون أولادهم الصغار ، ثم يجلسون فى صفوف منتظمة وأمامهم رئيس الجمهورية القديس ليوبولد سنغور القيس المسيحى يحضر الصلاة مع سفراء الدول الأجنبية •• يحضر فى موكب مثير من الجياد التى يمتطيها فرسان موشحون بملاس حمراء وزرقاء ••

كل هذا جميل •• ويدل على •• تسامح متبادل ، رغم أننى لم اكن أهضم أن بلدا ٩٠٪ منها مسلمون يحكمها رجل مسيحى

ولكن الذى لفت نظرى وأثار أسفى •• ان هذه الآلاف تجلس فى صمت غريب ليسمعوا خطاب العيد ولكننى شعرت ثم تأكدت أنها لا تفهم حرفا واحدا مما يقال •• فالخطبة كانت تتلى باللغة العربية ، واللغة المتبادلة هى الفرنسية

أنها لا تفهم حرفا واحدا مما يقال ••

هذا من حيث المظهر الخارجي ..

ولكن الجوهر الاسلامى من الداخل .. كيف يفهمونه ؟

الواقع ان الاسلام هناك ــ لانه نزح من المغرب ــ تأثر بالمفهوم « الفاطمى » فى مصر أيام الدولة الفاطمية .. فالاهتمام شديد بالعبادات .. « والذكر » .. والمواكب والحفلات وتعصب شديد للمذهب الشيعى وغيره من المذاهب الأخرى « للأئمة » والزعماء الدينيين ..

فمثلا تجد أن المسلمين من السنغال مندرجون تحت ثلاثة مذاهب : المالكية والتيجانية والمريدية .. ونجد الاتفاق بين المذاهب الثلاثة على ان الله واحد وان محمدا رسول الله .. ولكن الخلاف يدور بين التيجانية والمريدية على طريقة تسبيح وميعاد ذبح ضحية العيد وغيرها من المسائل الفرعية الشكلية .. التى يعطونها أهمية غريبة .. بعيدا عن فهم « جوهر » الدين ذاته ..

والزعيم الدينى فى غرب افريقيا يحظى باحترام يصل ــ فى بعض الأحيان ــ الى درجة التقديس تأثرا بمذهب « الامامية » فى الشيعة .. ويبدو أن بعض هؤلاء الزعماء استغلوا ثقة الناس بهم واستفادوا ماديا من هذا الوضع .. وامتلكوا الضياع والقصور ويكفى أن نعلم ان للزعيم الدينى مندوبا فى كل بلد وقرية يجمع « الهبات » للشيخ ..

ويكفى أن نعلم أن هؤلاء الشيوخ أوهموا تابعيهم بان فى امكان الشيخ أن يحج الى بيت الله نيابة عن المريد •• وفى هذه الحالة فعلى المريد أن يسلم شيخه كل تكاليف الحج « نقدا » •• ثم يقوم الشيخ بالحج نيابة عنه وتكون النتيجة ان جميع نقود الحجاج تذهب الى جيب الشيخ •• ويذهب هو ليحج لنفسه فقط •• فاذا علمت أن كثيرا من المريدين يرحبون بان يحج الشيخ عنهم لأن حجه سيكون « أكثر بركة » ، واذا أضفت لهذا ان تكاليف الحج من غرب افريقيا الى الحجاز باهظة و •• بالعملة الصعبة ، يمكنك أن تستنتج لماذا يمتلك هؤلاء الشيوخ الضياع والقصور !!

والواقع ان هذا الجهل الذى باعد بين المسلمين والاسلام هناك تقع تبعته كله على الاستعمار •• فقد كان الحاكم الاستعمارى يحرم المسلم من حق التعليم •• لدرجة ان بعض أبناء المسلمين فى شمال نيجيريا وفى الكونغو كانوا يغيرون اسماءهم من محمد وعبد الله •• الى جورج وجيمس لكى يتسللوا الى المدارس ويمنحوا أنفسهم فرصة حق التعليم فى المدارس الحكومية ••

ولم يتوقف الجهل بين المسلمين على أحوال الدنيا •• وانما زحف أيضا الى أمور الدين الأساسية •• فمثلا نرى ان مواعيد الصلاة هناك « ثابتة » فى الصيف والشتاء •• انهم

يصلون الصبح ويطلقون عليه « سوبا » فى الساعة الواحـدة ظهرا ..

والظهر « سالفانا » فى الساعة الثانية ظهرا ..

والعصر « الانسارو » فى الساعة الخامسة مساء ..

والمغرب « فيذيرو » فى الساعة السابعة مساء ..

والعشاء « ساكو » فى الساعة التاسعة مساء ..

ومن هنا كانت مهمة رجال الأزهر هناك هامة وضرورية وشاقة فى الوقت ذاته ، واذا كانت الحكومات الاستعمارية فى المـاضي كانت تتعمد وضع العراقيل أمام البعثات الأزهرية .. فان رجـال الأزهر الآن يجدون ــ فى ظل العلاقات الطيبة بين مصر والدول الافريقية ــ كل ترحيب من جمهور المسلمين .. وقد دمعت عينا أحد دعاة الأزهر ذات يوم عندما كان يسير فى أحد شوارع مدينة (كانو) فى شمال نيجيريا عندما فوجىء بأن المسلمين يسجدون له فى الشوارع .. ولم يترك المدينة الا عندما أفهمهم أن السجود فى الاسلام لله وحده ..

وقبل أن أترك نيجيريا سمعت قصـة عالم أزهرى جليل آخـر ..

اكتشف هذا العالم ان احدى القرى تعبد أوثانا من التماثيل الخشبية فقام ذات ليلة وأحرقها عن آخرها .. وعندما اكتشف

الناس ــ وهم فى ذهول ــ ان الهتهم قد أحرقهـا انسان ..
أقبلوا عليه ساجدين يريدون أن يعبدوه فما كان منه الا أن وقف
فيهم خطيبـا : «ما أنا الا أخ لكم .. جئت لابشركم بالـله
واحد .. قادر على كل شىء » .. وكانت مفاجأة عندما وجد
هذا العالم الأزهرى أهـالىالقرية فى نهاية خطبته يدخلون فى
دين الله أفواجا ..

وكم من قرى فى حاجة الى مثل هذا العالم الجليل ..

ويكفى أن يعرف المسئولون عن الأزهر وعن المجلس الأعلى
للشئون الاسـلامية ان الكلمة الوحيدة التى كنت اسمعها من
كل مسلم يقابلنى هناك .. بل من كل زعيم دينى مخلص :

ــ أكثروا من بعثاتكم الأزهرية ..

ــ أبعثوا لنا مزيدا من الكتب الاسلامية ..

ــ لا تنسوا ان لكم اخوانا لكم يعيشـون فى السـهول
والوديان والأدغال فى حاجة الى ما وهبكم الله من معرفة ..

وأخيرا قال لى أحد زعماء المسلمين وهو يودعنى ويؤكد
على ضرورة كتابة هذه الاستغاثة لا تنسى الحديث الذى يقول :
« من علم علما فكتمه الجم يوم القيامة بلجام من نار » ..

***

المشهد رقم (١٠)

هنا ينبع نهر النيل

أخـيرا استطعت أن أحقق أحـد أحـلامى العزيزة .. كمصرى وكصحفى .. لقد وصلت الى منطقة منابع النيل .. وهى منطقة قد تعنى أشياء كثيرة بالنسبة لسكان العـالم .. وقد تجذب اهتمام السياح والمغامرين .. وقد تلفت انظـار الباحثين عن المعرفة .. والكشـف عن المجهول .. ولكن هذه المنطقة تعنى شيئا آخر بالنسبة لنا .. نحن الذين نعيش عند المصب .. مصب هذا النهر العظيم ..

ومن أجل هذا .. ذهبنا الى هناك ..

اقتربت الطائرة من مطار عنتيبى .. الميناء الأوغندى الذى يقع على شاطىء بحيرة فيكتوريا .. فوجئت من الجو بمشـهد

البحيرة المثير •• وأول هذه المفاجآت •• كانت تلك المساحة الشاسعة التى تمثلها البحيرة تحتنا ••

المطار ملتصق بالبحيرة •• أحسست بطائرتى وكأنها تهبط فى بحر كبير •• وانتابتنى سعادة غامضة •• لم يكن هذا الاحساس نابعا فقط من مشهد البحيرة •• بزرقتها الداكنة •• وارتفاع جبالها •• وخضرة أدغالها •• وانما كان نابعا من شيء أكبر •• انه ذلك الاحساس العظيم الذى ينتاب المصرى – أى مصرى – الذى يعيش منذ آلاف السنين عند مصب نهر النيل •• ويعرف ماذا تعنى منابع النيل بالنسبة له •• وبالنسبة لمصر ••

بهذا الاحساس المثير تعجلت اجراءات الجمرك •• وطلبت من مرافقى الأوغندى « تومالونج » الذهاب بى فورا الى شاطىء البحيرة •• كانت مياه البحيرة العظيمة تمتد أمامى حتى الأفق •• وكان بعض الهنود يستحمون فى مياه المنبع •• وبصراحة •• لم استرح لهذا المشهد •• اذ لم أكن أتصور أن منابع مياه النهر الذى اشرب منه •• يستخدم كبلاج لاستحمام الهنود وغير الهنود ! بل اننى لم أستوعب أن أرى على سطح هذه المياه •• ثلاث بواخر كبرى تمخر عباب الماء •• تضرب « برفاصاتها » مياهه المقدسة وتلتقى (بمخلفاتها) فى أعماق أمواجه الخالدة !!

فبحيرة فيكتوريا •• ومياهها •• من المقدسا بالنسبة لى ••
وبالنسبة لأى مصرى أو سودانى ••

بعد جولات أخرى على شاطىء البحيرة •• اكتشفت أن معظمها محاط بالجبال والأدغال •• وان المكان الذى وقفت فيه فى البداية يستخدم كبلاج لقربه من كمبالا عاصمة أوغندا••

اتجهت للعاصمة •• وأنا فى شبه ذهول من مشهد البحيرة •• ومما سمعته عنها من المهندس محمد عبد العال ـ مهندس الري المصرى هناك ووزير الرى الأسبق ـ قال لى رغم كل هذه المساحة التى تراها •• فقد تدهش اذا علمت انه لا يخرج لنا من هذه البحيرة سوى عشرين فى المائة من مياهها •• والباقى يذهب مرة أخرى متبخرا الى السماء أو متسربا الى القاع •• فى منطقة المستنقعات الكبرى

شىء آخر لاحظته وسمعته •• كان مفاجأة أخرى ••

فرغم أن الناس هنا ـ فى منطقة المنابع الكبرى ـ لا تروى أراضيها من مياه النيل •• ولا حتى من مياه البحيرة الا نادرا ••

فالأرض هنا تعتمد على المطر •• أما مياه المنابع فهى تسقط على الجبال وتسرع من خلال مجار صخرية ضيقة نحو السودان ومصر •• فلا يمكن هنا حفر ترعة واحدة •• فالأراضى معظمها صلبة وجبلية •• والمنطقة مرصعة بالغابات الكثيفة ••

وكأن الله قد مهد الطبيعة لتدفع الميـاه •• معظم الميـاه نحو الشمال •• الى السودان مصر ! !

وأمام هذه السيمفونية الالهية شعرت ــ كصحفى ــ كأننى أمام « بانوراما » صحفية •• ليس من السـهل تسجيلهـا •• المسافات شاسعة •• والتفاصيل كثيرة •• والوقت ضيق ••

ولم يكن أمامنا سوى أن نبدأ بحماس أبناء النيل •• وصبرهم نجوب المنطقة بطولها وعرضها وارتفاع جبالها •• بحثا عن قصة قصيرة •• أو لقطة صغيرة •• وكان هـذا يكلفنـا الكثير من الأميال والساعات ••

ولست أدرى هـل استطعنا حقا أن نلم بأطراف هـذه الملحمة •• وهـل سأتمكن من تلخيص كل ما رأيت وسمعت من خلال السطور القليلة القادمة ••

*** تخلص من تخيلاتك السابقة**

ان كل شيء هنا مختلف •• مختلف تماما عما قرأناه فى قصص الاكتشافات الكبرى •• أو كتب الجغرافيا ••

وحتى تأخذ معى ــ فكرة صحيحة فعليك أن تتخلى ــ كما فعلت ــ عن تخيلاتك السابقة •• لتفسح المجـال للحقائق التى سمعتها هنا ••

فمساحة هذه البحيرة هائلة •• تقترب من مساحة أوغندا كلها •• !! فهى تبلغ حوالى ٧٠ ألف كيلو مترا مربعا ومتوسط

عمقها خمسين مترا •• ويصـــل هذا العمق فى كثير من مناطقها الى أكثر من سبعين مترا••أما طول البحيرة فيبلغ ٥٠٧ كيلو مترا وعرضـــها ٤٤٢ كيلو مترا •• ولذلك فان البواخر السياحيـــة لا يمكنها أن تمضى بك فى جولة سريعة لتمر على أشهر موانيها فى أوغندا وتنزانيا وكينيا قبل أقل من أسبوع كامل ••

واذا انتقلنا الى كمية المياه التى تنزل على البحيرة •• وكمية ما يخرج منها •• ويصل الى مصر فى النهاية •• فالمسألة تحتاج الى حسبة أخرى ••

واذا بدأنا الرحلة من أولها فسنجد :

ـ ان مجموع ما ينزل على البحيرة من أمطار يصل الى ٩٨ مليار متر مكعب فى السنة ••

ـ ومجموع ما يصل اليها من مياه المنابع والأنهار التى تصب فيها ١٦ مليار متر مكعب ••

ـ مجموع المصدرين ١١٤ مليار متر مكعب ••

ـ يتبخر منها ٩٣ مليار متر مكعب ••

ـ يبقى ما يخرج منها سنويا ٢١ مليار متر مكعب ••

والآن •• هل يصل الـ (٢١ مليار) الخارجة من فيكتوريا الى السد العالى ـ أى الى مصر ـ ؟

الجـواب : لا ••

وحتى نعرف السبب تعال بنا نمضى مع رحلة الـ (٢١ مليار) .

وهى رحلة طويلة تستغرق من ثلاثة الى ستة شهور كل عام .. لكى تصل الى مصر ..

تمضى هذه الرحلة فى نهر ضيق سريع الجريان حتى تمر ببحيرتى (كيوجا) و (البرت) وهنا تزداد كمية النهر من ٢١ مليارا الى ٢٤٫٥ مليارا ، وعندما تصل مياه النهر الى مدينة نحولى على حدود السودان وأوغندا تصبح ٢٩ مليارا عندما يضاف اليها ٤٫٥ مليار أخرى بلقائها عبر مياه نهر أسوا القادمة من جبال الحبشة ..

يصبح لدينا الآن عند مدخل السودان ــ من الجنوب ــ ٢٩ مليار متر مكعب فهل تصل كلها الى مصر .. الجواب لا .. لأن النيل هنا يتمزق فى متاهة منطقة المستنقعات الكبرى فى جنوب السودان فلا تصل (الـ ٢٩٫٥ مليار) لمصر الا بعد أن تكون قد فقدت أكثر من نصفها .. وتبعا للحسابات الدقيقة لا يصل لخزان السد العالى من بحيرة فيكتوريا الا ١٠ مليارات متر مكعب سنويا ..

هنا تتذكر مياه الفيضان القادمة من اثيوبيا ويصبح الانسان شغوفا بمعرفة الكمية التى تصل منها الى مصر .. فنقول له انها حوالى ٧٤ مليار متر مكعب سنويا ..

وبذلك تصبح الكمية التى يتم تخزينها أمام السد العالى ٨٤ مليار متر مكعب سنويا يتم توزيعها ــ بعد الفاقد وهو ١٠ مليارات بين مصر والسودان حسب الاتفاقية المعقودة بين البلدين ..

بعد هذه الرحلة الشاقة المليئة بالمعلومات والأرقام .. والتى وصلت بنا الى مشارف مصر والسد العالى .. نعود مرة أخرى الى هضبة البحيرات .. وبالذات عند بحيرة فيكتوريا .. لنجوس بك ــ فى رحلة عاجلة ــ عبر جزرها ومياهها

*** عواصف فجائية عنيفة :**

البحيرة مليئة بالجزر التى تكسوها غابات السافانا وجزرها مثل شواطئها جبلية شاهقة الارتفاع ، مهيبة المشهد تنفجر أرضها بالخضرة والأشجار الضخمة والحيوانات المفترسة وغير المفترسة ..

عندما مررنا على جزيرة (سمس) قال لنا المرافق الأوغندى ان هذه الجزيرة كانت مقفرة منذ أعوام بسبب مرض النوم الذى أودى بحياة أكثر سكانها ، الا انه قد صرح للناس أخيرا أن يعودوا اليها ، لأن الذباب لم يعد يحمل ميكروب هذا المرض اللعين ..

شواطىء البحيرة غاية فى الروعة والجمال ، فهى أحيانا تنبسط فى ساحل رملى ، يتحول الى بلاج غريب من المياه

« الحلوة » ، وأحيانا أخرى يعلو الى ارتفاعات جبلية شاهقة تطل على مساحة هائلة من المياه ذات الزرقة الصافية ..

وبحيرة فيكتوريا كمعظم البحيرات الافريقية ــ معرضة للعواصف الفجائية العنيفة ، وذلك بسبب وجود مساحة هائلة من المياه محاطة بمساحة أكثر اتساعا من اليابسة مما ينتج عنه حدوث (خلاخل هوائية) مفاجئة قوية ، تدفع بكميات هائلة من الهواء ، وتغرس جحافلها الى سطح البحيرة فتوقظ أمواجها النائمة وترفعها بشدة لتتلاطم ــ بغير انتظام ــ وتعرض الملاحة فيها الى اهوال غاية فى العنف والخطورة .. وقد هاجمت سفينتنا واحدة من العواصف شعرنا خلالها أننا غارقون لا محالة .. ولكن القبطان سخر من خوفنا .. وقال انها مجرد « نموذج مصغر » لعواصف البحيرة العاتية ومن أغرب المشاهد المثيرة وسط البحيرة .. هو انفجار نوافير المياه الساخنة فجأة بين الحين والآخر وسط البحيرة .. وبعد أن ترتفع المياه لمدة معينة ما تلبث أن تقل وتختفى نهائيا..وقد فاجأتنا..احدى هذه النوافير.. الساخنة .. وذكر لنا مرافقنا .. انها تحدث نتيجة للضغوط المفاجئة .. فى قاع البحيرة .. الملىء بالشقوق التى تتسرب منها .. مياه البحيرة باستمرار ..

ورغم ان البحيرة تقع فى المنطقة الحارة ، فان مناخها بشكل عام يعتبر ربيعا دائما ، والسبب فى ذلك انها تقع كطبق كبير على قمة هضبة جميلة جبلية ترتفع عن سطح البحر حوالى

٤٠٠٠ قــدم •• ولذلك نجد أن الحد الأقصى للحــرارة يبلغ متوسطه ٢٧ درجة •• أما الحد الأدنى فلا يقل عن ١٧ درجة •• ولكن الرطوبة الكثيفة •• تشعرك أنك تعيش دائما فى المنطقة الحــارة ••

فالجو اذن بشكل عام رائع ولا عيب فيه ســوى أن درجة الحرارة تجرى على وتيرة واحدة ، وكذلك الأمطار التى تسقط معظم شهور السنة •• كما أن درجة الرطوبة عالية ولا تقل فى متوسطها عن ٨٠٪ ••

وأكثر ما ينغص حياة المواطنين هناك مرض النوم الذى تنقله باللسع ذبابة « التسى تسى » الشهيرة وينشأ المرض من تكوين ميكروســكوبى يســمى (تريبا نوزوم) يكمن فى دم المصــابين ، وتحمله معها الذبابة عند اللســع ثم تنقــله الى الاصحاء •• وهـكذا ••

ورغم وفرة الخبرات فى منطقة بحيرة فيكتوريا والتى تبدو واضحة لأى زائر متجول •• فقد لاحظت ان معظم السكان هناك يعانون من سوء التغذية ، فليست كل الأشجار تعطى الثمــار والفاكهة •• خاصة ان استقلال الدول المحيطة بالبحيرة كينيــا وأوغندا وتنزانيا جعلها تهتم بصحة المواطنين ، مما قلل من نسبة الوفيات وزاد من عدد السكان زيادة لم يقابلها توسع فى الرقعة الزراعية أو الانتاجية بالمنطقة •• فمعظمها مناطق غابات وعرة

لا تصلح للزراعة ومناطق شاى وبن محتكـــرة منذ زمن للهنود والمهاجرين يصل لمئات السنين ! !

وقد كانت العصور المـــاضية كفيلة الى حد ما بالمحافظـــة على التوازن بين سكان افريقيا و .. بين امكانات البيئة وما كانت تعانيه القـــارة من تفشى الامراض ونشـــوب الحروب الأهلية والعالمية ، أما فى هـــذا القرن الذى حرمت فيه تجارة الرقيق ، وتوقفت الحروب الأهليـــة وغير الأهليـــة وكوفح المرض من الحكومات الثلاث كفاحا مريرا .. فقد أصبح الطريق مفتوحا على مصراعيه أمام الزيادة المطردة لعدد السكان .. وخاصة بين قبائله البدائية الموجودة ، والتى مازالت تتجه نحو الاكثار من الذرية ..

الناس والحياة عند منابع النيل

وبمناسبة الكلام عن القبـــائل البدائية .. فـــاعتقد انه يهمنا ــ نحن الذين نعيش عند مصب النيل ــ أن نعرف شـــيئا عن اخواننا الذين يعيشون عند المنبع .. وبشكل عام .. فهناك فرق كبير بين حياتنا وحياتهم .. ولعل الشىء الوحيد الذى نتشابه فيه معهم ، هو اننـــا نشترك معهم فى الشرب من ميـــاه

النهر العظيم .. أما بعد ذلك .. فالاختلاف - نراه - تقريبا فى كل شيء ..

وكلامى هذا ينصب على سكان الغابات ..

أما سكان المدن - فهم كسكان المدن فى كل مكان - حياتهم لا تختلف كثيرا .. غير أن هناك ظاهرة لفتت نظرى فى معظم المدن والبلدان المحيطة ببحيرة فيكتوريا .. هى انتشار المهاجرين الهنود انتشارا ملحوظا .. وسيطرتهم التامة على المرافق الاقتصادية ، ويكفى أن تعرف انه لا يوجد دكان واحد فى بلدة كبيرة أو صغيرة لمواطن افريقى ..

ان ٩٩٪ من هذه المحلات أصحابها هنود ..

شيء آخر ..

معظم المواطنين الافريقيين - حتى الذين يعملون بالمدن - يفضلون أن يسكنوا خارج المدن .. فالافريقى مازال يضيق بشكل عام بالحياة المدنية .. ولا يطيق ما بداخلها من زحام وصراع ..

وقد تعجبت أن أرى هذا العدد الكبير من المهاجرين الهنود منتشرين عند منابع النيل رغم المساحة الشاسعة التى تفصل بين شرق افريقيا والهند .. بينما لم أجد مهاجرا مصريا واحدا فى هذا المكان !! رغم اننا نعيش فى نفس القارة !! ويربطنا بهذه البلاد شريط مائى يتيح لأى انسان أن يركب قاربا

صغيرا ويلقى بنفسه على صفحة النيل فيصل الى هنــاك بعد مجهود بسيط ..

واذا تركنا حياة المــدن ــ مثل كمبــالا عاصمة أوغنــدا أو جينجا المدينة التى تقع عند منبع النيل وتوغلنا فى الغابات لنرى نوعيات البشر التى تعيش هناك فان الكلام يصبح مختلفا تماما ..

فمعظم الوطنيين الذين يقطنون شمال منابع النيل وجنوبه ينتسبون الى مجموعة القبائل النيلية الحــامية مثل والازندى والقبائل النيلية التى تشمل على ثلاثة قبائل هى الشلوك والدنكا والنوير ..

ويتميز رجال هذه القبائل بطول الأجسام ونحافتها وطول السيقان ، كما تتميز بالأرجل الرفيعة والأذرع والرءوس الطويلة والبشرة السمراء ، والناس فى هــذه القبائل الثلاث لا يرتدون ــ بشكل عام ــ الملابس ويأنفون الاختلاط بالأجانب ويصعب التآلف معهم ، وهم يملكون المشية وبقدر عدد الرءوس التى يمتلكها الفرد تحدد مكانته فى القبيلة وخارجها .. فالماشــية بالنسبة لهــذه المجموعة من القبــائل هى مهر العروس ، ودية القتلى ، والحديث الذى يطغى على كل حديث ، وهى محور أفكارهم ووحى أغانيهم وأناشيدهم وموضوع تراتيلهم لدرجة أن الرجل بين هذه القبائل يعرف باسم بقرته أو ثوره ..

ولاحظت أن قرى هذه القبائل ثابتة تصنع جدرانها من قش السافانا ، وأسقفها مخروطيـة الشـكل لمقاومة الأمطار الاستوائيـة الغزيرة .. وقـد تعودوا على حيـاة السـهول والمستنقعات حتى انعدمت استعداداتهم للتأثر بالتيارات الحضارية الخارجية .. ولذلك نراهم متمسكين ببدائيتهم بحيث يتعذر على الاغراب فهم الكثير من آرائهم وعاداتهم وتقاليدهم ..

وتؤلف قبائل الشلوك وحدة واحدة يحكمها ملك ، وكان هذا فيما مضى يقتل عن طريق زوجاته بمجرد ان تضمحل صحته ايمانا منهم بان صحة شـباب القبيلة ورجالها متعلقة بصحـة مليكها .. وأن الملك .. لأنه مقدس .. يجب ألا يموت فالملك يقتل رغما عنه .. كما ذكرت بالتفصيل عند لقـائى مع « ملك الشـلوك » ..

أقسى من الموت

أما (الدنكا) فتنقسم الى عدد من القبائل المستقلة التى تتشابه مداركها وأهم شخص فى القبيلة هو من يطلقون عليـه لقب (صانع المطر) .. وهو الذى يخرج فى أوقات الجفاف

الى قمم الجبال ويتمتم بتعاويذ معينة يوجهها لآلهة السماء ..
استدرارا للمطر وذلك لأن معظم زراعاتهم البدائية ومراعيهم
تعتمد على المطر .. ولكن لاشك أن هذه التعاويذ هي من
من حظ بحيرة فيكتوريا لأن معظم هذا المطر يذهب اليها وكان
هذا الرجل ـ حسب عادات القبيلة ـ يدفن حيا اذا بلغ سن
الشيخوخة .. ولكن مرافقي ذكر لي ان هذه العادة بدأت تختفي
الآن بتأثير التيارات الحضارية .. واختلاط بعض أفراد الدنكا ..
بأهل المدن ..

أما النوير فهم من فروع الدنكا ، وينقسمون أيضا الى قبائل
مستقلة تعرف بشراستها وبأس شبانها .. وفتيات هذه القبيلة
ترفض الزواج من أي شاب ذهب الى احدى المعارك .. وعاد
مهزوما .. ولذلك فشبان هذه القبيلة لا يهزمن أبدا ..
وشعارهم دائما : (النصر أو الموت) .. لأن عودتهم الى فتياتهم
مهزومين تعتبر فى نظرهم أقسى من الموت ذاته .. فهى تعنى
الحياة الوحيدة البائسة وسط الأحراش على أطلال ذكريات
الهزيمة البائسة .. وعارها الأبدى ..

ويأتى بعد ذلك (الازندى) وهى قبائل لا يقتنى أفرادها
الماشية ولكنهم يزرعون الذرة والموز .. وهم يتميزون بالمرح
وحب الناس والألفة كما انهم من أمهر صيادى العالم ، وكانوا
فيما مضى من أكلة لحوم البشر .. وكان جيرانهم يتهكمون عليهم

ويطلقون عليهم قبائل (النيام نيام) اشارة الى صـوت اللحم البشرى عندما تلوكه أفواههم النهمة ..

وعندما توجهنا جنوبا حول بحيرة فيكتوريا .. حيث هضبة البحيرات وجدنا أكبر مجموعة تتكلم بلهجات متقاربة هى مجموعة شعوب (الباتتو) الزنجيـة ، وهى خليط قـديم من الزنوج الوطنيين والغزاة الحاميين الذين وفدوا من الشـمال الشرقى والمجموعة الأولى يمثلها الأقزام الذين يستوطنون الغابات فى جنوب البحيرة فى الكونغو كنشاسا وغرب أوغندا ، وعلمت أنه توجد فى رواندا ثلاث قبائل متجاورة كلها تنتمى الى الباتتو :

*** الواتوزى :**

وهى قبيلة ارستقراطية تتميز بطول الجسم وسمرة الوجه والملامح الحامية الدقيقة ..

*** الواهوتـو :**

وهم زنوج ذو أجسام متوسطة ويقومون بالأعمال العادية من رعى وصيد ..

*** والبـاتوا :**

وهم أقزام صغار الجسم ويعتبرون فى المرتبة الأخيرة بين القبائل الثلاث السابقة ..

واللغة السائدة بين معظم سكان هضبة البحيرات ، هى

اللغة السواحلية •• وهى خليط من اللغات العربية والانجليزية والألمـانية نظرا لوجود العرب فى هذه المنطقة منذ مئات السنين ونظرا للوجود الاستعمارى الانجليزى والألمـانى منذ نهايـة القرن المـاضى ••

أما بالنسبة للعرب فقد وجدت آثار لهم هنا عند منابع النيل •• حيث امتد وجودهم اليها بعد أن استوطنوا الساحل الشرقى لافريقيا منذ أكثر من ألف عام •• ولذلك كان اسـم لغة القبائل فى هـذه المنطقة مشتق من كلمة (ساحل) العربية ويرمز هذا الى الجهة التى جاء منها العرب الى قلب افريقيـا كتجار حاملين للافريقيين معهم اللغة والثقافة العربية •• والدين الاسلامى •• ومن الساحل انتقلوا الى منطقة هضبة البحيرات •• حول بحيرة فيكتوريا •• حيث تمضى رحلتنا حولها ••

وبمناسبة الكلام عن الاسلام فهو منتشر بنسبة ٣٠٪ بين سكان هضبة البحيرات وقد استطاعت البعثـات التبشيرية أن تجذب الى المسيحية ٦٠٪ من الافريقيين هـناك وبقى ١٠٪ منهم يتبعون أديانهم البدائية التى تقوم معظمها على عبادة الأجداد والأرواح والتواتم ••

والواقع ان فهم المسلمين هناك لتعاليم الاسـلام الحقيقية

يصل الى درجة الصفر •• فالمسلم عند منطقة المنابع لا يفهم من اسلامه سوى انه ليس مسيحيا ولا وثنيا ويتميز عن الاثنين بانه يلبس (جلابية) بيضـــاء وطاقية أكثر بياضا •• وبعد ذلك فانه لا يستطيع أن يعرف سوى عبادة الأجداد والأرواح والتواتم••

ورغم هذا فهم شغوفون جدا لمعرفة أى شيء عن دينهم وقد ذكر لى شيخ اسلام أوغندا •• انه يبعث دائما للقاهرة لترســـل اليه بعض الكتب أو بعض رجال الأزهر •• والواقع ان بعض الدعاة يذهبون الى هناك فعلا ولكن بامكانيـــات مادية ولغوية ضعيفة •• وتقف الامكانات المـــادية عقبة أمام تحركهم الى الناس فى المناطق البعيدة فان حدث وتحركوا فان اللغـــة تقف أمـــام تفاهمهم مع هؤلاء الناس •• بعكس المبشرين الذين يذهبون الى هذه المناطق بامكانيات مادية •• ولغوية أوسع ••

والواقع ان عدم وصول تعاليم الاسلام الى بلاد قريبـــة من بلاد الاسلام •• لم يكن هو الشيء الوحيد الذى آلمنى هناك •• فللاسلام رب يحميه •• ولكن هـــذه البلاد الشقيقة أوغندا وتنزانيا وكينيا ــ بلاد منابع النيل •• البلاد التى توجد بها وحدة الأرض والتاريخ والمصير •• هـــذه البلاد العزيزة ، أصبحت تحوى كل وجود كالوجود الانجليزى والهندى وحتى الوجود الاسرائيلى عدا وجودنا •• فهو وجود غاية فى الضآلة

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية •• رغم انها بلاد مفتوحة ولا تغلق أبوابها فى وجوهنا ولست أدرى الى متى سنظل على هذا الحال والى متى نولى هذه البلاد ظهورنا والى متى سنظل غير مدركين لأهمية تطوير علاقاتنا بهذه البلاد التى تبدأ من أراضيها رحلة أهم شريان يغذى حياتنا ـ رحلة النيل العظيم ••

••

المشهد رقم (١١)

رحـــلة هرب ..
داخل أجمل رحلة قطار العالم

فى هذا القطار يعيش الراكب فى احتفال عام ، ويتحدث مع كل انسان ، وخارج النوافذ غابة واحدة متصلة .. يخترقها القطار فى انفاق داخل الاشجار الضخمة ..

وكل شىء فى الرحلة باهر .. ومثير ، وخاصـــة عندما يكون الراكب صــحفى ويــكون فى اعقابــه بوليس مينـــاء بوانت نوار .. وقصة هرب الى العاصمة برازافيل .. للاحتماء بالسفارة المصرية فى عاصمة الكونغو .

***

رحلة القطار التى أروى قصتها فى الصفحات التالية هى

قصة رحلتى •• والغابة التى يخترقها تبلغ مساحتهـا حوالى مليون ميل مربع •• ولا يسكنها سـوى مليون نسمة •• وهى تعتبر أكثف غابة فى العالم •• لأن أشجارها متلاصقة الى حد لا يسمح بأن تمر أشجارها غير الزواحف ••

وقد لجأ الفرنسيون أيام استعمارهم للمنطقة الى استخدام الديناميت لشق نفق للخط الحديدى بين أشجار هذه الغابة ، واستغرق مد الخط عشرة أعوام •• وجلبوا له العمـال من كافة أنحاء افريقيا ••

وعندماتم انشاؤه كان عدد ضحايا المشروع قد زاد على عدد « الفلنكات » التى تحمـل قضـبان هـذا الخط الحديـدى المرعب •• خاصـة وانه قد ثبت من احصاء أجراه الفرنسيون أنفسهم ان المشروع قد تكلف حياة افريقى واحد فى مقابل كل فلنكة •• وأوربى واحد فى مقابل كل ثلاث فلنكات ••

***

والمفارقة أن سبب ركوبى هذا القطار •• جاء صـدفة •• وقـد بدأت القصـة عندما اقترب منى أحـد رجـال بوليس « بوانت نوار » فى الكونغو •• وقال لى فى أدب شديد :

ـ عندى أمر بأن تغادروا الأراضى الكنغولية فورا ••

ولبثت صامتا لحظات وأنا احاول أن أفهم لمـاذا يريد بلد

صديق (الكونغو برازافيل) ان يتخلص منى ومن زميلى المصور محمد سعيد ..

وقلت للضابط الكنغولى وأنا احاول أن اخفى غضبى :

ـ ولكن تذاكر طائرتنا لم تصل بعد ..

فاذا به يقول :

ـ ممنــوع أن تركبوا الطــائرة يجب أن تكون عودتكم بالبحر ..

ولم أعد أفهم شيئا ..

ـ لمــاذا البحر بالذات ؟

ـ هذه تعليمات السفارة ..

ـ سفارة من ؟

ـ سفارة مصر .. بناء على برقية من رئيسكم ..

ـ رئيســنا من ؟

ـ صلاح حافظ .. رئيس تحرير مجلتكم آخر ساعة ..

فذهلت .. واختلط الأمر فى ذهنى أكثر مما هو مختلط..

نعم نحن كتبنا رســالة الى صلاح حافظ نخبره بأننا أنجزنا عملنا فى الكونغو .. ونسأله هــل ننتظر طــائرة العودة ، أم سنستقل الباخرة « ميس » لنجرى تحقيقات صحفية ملونة فى بعض الموانىء ..

وقال لى رجل البوليس عظيم •• وها هو رئيس التحرير يرد عليكم ببرقية على عنوان السفارة يقول فيها :

« يجب أن تعودوا بالبحر » ••

ولكن ما علاقة هذا برجال الأمن الكونغولى ؟

ولماذا يجب أن يكون الرحيل فورا •• وبالأمر ؟

قلت للضابط :

ــ هل تسمح بأن تقول لى من أين تلقيت هذه الأوامر ؟

قال ببساطة :

ــ من العاصمة •• من مدير الأمن شخصيا •• وباللاسلكى ••

فأحسست بحلقى يختنق ••

مدير الأمن •• وباللاسلكى •• وقوات من الشرطة تنتظر فى الخارج •• والجو كله كأنما مسته كهرباء ••

كان واضحا أن هناك سوء تفاهم من نوع ما ••

وكان من العبث أن نضيع وقتنا ــ أنا وزميلى ــ فى محاولات الاستنتاج لقد كان الأهم أن نقنع الضابط الكونغولى باعطائنا الفرصة •• ونفهمه ــ أننا رغم برقية رئيس التحرير ــ احرار فى طريقة عودتنا

ولكن يبدو انه لم تكن هناك أى فرصة للتفاهم ••

فكلمة « الرئيس » فى الكونغو لها قدسية خاصة ..
قدسية شبه دينية .. ورئيسنا صلاح حافظ قال اننا يجب أن نعود فورا ، وبالبحر وها هو البحر أمامنا والضابط وراءنا .. ولا مفر ..

طلبنا منه أن تتصل برئيسنا فرفض ، توسلنا اليه أن تتصل بالسفارة ، فرفض وقال ان اليوم الأحد وكل شيء معطل ، وخط التليفون لا يعمل مع العاصمة ، واللاسلكى الوحيد فى الميناء خاص بالجيش وهو معطل .

ولم يعد أمامنا الا المقاومة فقلنا لهم ان من حقنا أن نرفض الرحيل لاننا نريد أن نذهب بالطائرة لعاصمة الكونغو ومنها الى انجولا ، وليتفضلوا بترحيلنا بالقوة ..

وارتبك الضابط بالطبع .. ووجد نفسه مضطرا الى اعادة الاتصال برؤسائه فى العاصمة قبل أن يتولى استخدام القوة معنا ..

وكان هذا بالضبط ما نقصده ..

ولكن .. ما كان أشد خيبتنا ..

فقد بذل الضابط جهدا كبيرا ، واستدعى أكثر من خبير فى اللاسلكى لاصلاح جهازه المعطل .. ليجيىء الرد فى النهاية من مدير الأمن :

ـ يجب أن يرحل الصحفيين فورا .. ولو بالقوة تنفيذا لأوامر سفارتهم و .. رئيس تحريرهم

وهكذا لم يعد أمامنا الا الاستسلام وفى ثوان كنا داخل « بوكس » البوليس ، وتطوع أحد البلجيكيين بأن ينقلنا فى اللنش الخاص به الى السفينة •• وبعد لحظات كنا فى هذا اللنش يحرسنا عشرة من رجال البوليس ••

الصلح الماكر

وقبل أن نصل الى السفينة تعمدت « التظاهر » بالموافقة مع الضابط ، واعتذرنا له أمام ركاب السفينة صافحناه بحرارة وشكرناه •• حتى لا نبدو أمام قبطان السفينة مقبوضا علينا وبعد انصرافه ادعينا لقبطان الباخرة أن هذا الضابط خدمنا ووضع اللنش تحت خدمتنا لنلحق بالسفينة التى كادت تسافر من غيرنا ••

وبذلك تلافينا فضيحة وصولنا الى السفينة محروسين برجال البوليس ••

ولكن دمنا كان يغلى أنا وزميلى محمد سعيد ••

ولم يكن السبب هو هذا الأمر الغامض بترحيلنا •• انما كان سببا أهم ••

كنا بعد أن بعثنا رسالتنا الى صلاح حافظ قد وجدنا فرصة لدخول أنجولا التى كانت مازالت مستعمرة برتغالية •• وكنا قد غيرنا خططنا لنحقق هذا النصر الصحفى •• وها نحن

نعود برغم أنوفنا قبل أن نحققه .. ونتيجة لسوء تفاهم لا نعرف بالضبط تفاصيله .. ودون أن نتبادل أية كلمة .. وجدنا نفسينا ــ أنا ومحمد سعيد ــ نقول « لا » ..

وصممنا على أن تتم بأى ثمن رحلة أنجولا ..

وقدم الينا الحظ خدمة كبيرة .. اذ تأخر موعد سفر الباخرة الى ظهر اليوم التالى .. وكان فى الميناء لنش يعود الى الشاطىء كل صباح يحمل المسافرين الذين يريدون أن يشتروا شيئا من سوق الميناء .. فتسللنا الى هذا اللنش ، ونزلنا منه الى الشاطىء وادعينا للقبطان أننا نسينا شيئا على الشاطىء ومن هناك تسللنا .. هاربين من الأعين التى رآتنا أمس فى حراسة البوليس ..

وفرضنا أنفسنا ــ بثقل ظل ــ لا حد له على سيارة صاحب اللنش .. فهى السيارة الوحيدة التى اعتاد صاحبها الفرنسى أن يعبر بها الجمرك دون تفتيش .. وكنا طول الوقت نحدثه عن براعتنا الخارقة فى قيادة السيارات بسرعة .. ودفعه هذا دون وعى منه أن يسرع ..

وبعد أن تجاوزنا منطقة الخطر شكرناه .. ونزلنا من السيارة .. وأصبح علينا أن نصل أولا وبأى ثمن الى سفارتنا فى العاصمة ..

وكانت الوسيلة الوحيدة أمامنا قطارا يصل اليها بعد رحلة

تستغرق طوال الليل فقررنا دون تردد ان نركبـه •• قطعنـا التذاكر •• ثم اختفينا وراء أشجار المحطة •• حتى لا يعثر علينا أحد أفراد البوليس الذين اشتركوا فى ترحيلنا حتى جاء القطار •• ووقف فى لمحطة •• وكادت تقف معه دقات قلوبنا •• خوفا •• أن يلاحقنا البوليس الذى اعتقد أنه قذف بنـا الى البـاخرة •• وعندما تحرك قفزنا الى قلب القطـار •• حيث بدأت رحلتنـا المثيرة •• داخل أدغال الغابة المثيرة ••

وهكذا •• كان موعدنا مع هـذا القطار •• موعدا مع القدر وجاءت رحلتنا ــ عبر غاباته ــ صدفة كما ذكرت ••

الضحك حتى الاغماء

القطار يمكن أن يقال انه من قطارات الدرجة الرابعـة ، فهو فى الأصل قطار بضاعة ، وعربات الركاب تضاف الى آخره كما يضاف الذيل الى حيوان الغابة ••

كان القطار يخترق قلب الغابة •• وكأنه ثعبان كبير يعرف طريقه داخل الأحراش •• معظم محطاته ومنحنياته مجرد أنفاق داخل الأشجار العملاقة •• ولكثافة الأشجار •• وجدنا القطار يغوص فى ظـلام حـالك •• وسـط ليـل مبكر •• لم تغرب شمسه بعد ••

أما داخل القطار •• فقد شعرنا وكأننا نسبح عبر أمواج متلاطمة وغريبة من البشر والمرح •• يكفى أن يركب الانسان هذا القطار ليشعر أن الشعب الكونغولى هو أكثر الشعوب مرحا على ظهر الأرض ••

شعب لا يحب « النكد » ••

فى القطار لم نضبط واحدا متلبسا بظاهرة « التجهم » التى تجثم على وجوه شبابنا منذ سنوات •• الكل يتبادل مع الكل الأخبار السارة والضحكات الصاخبة من الأعماق ••

وفى القطارات المصرية لا يتبادل الحديث الا الجالسون فى مقاعد متقابلة •• أما فى هذا القطارفالعربة كلها تتبادل الحديث والنكات ، والذى عنده نكته يلقيها على جميع الحاضرين •• فالنكات مشاع •• وكذلك الضحكات •• مع المعارف والغرباء ••

وقد وقف أحدهم يلقى نكتا متواصلة حتى اغمى على احدى الحاضرات •• وبعد ذلك اغمي عليه هو نفسه من فرط الارهاق •• !!

وفى جيوب معظمهم كانت تبدو بوضوح زجاجات النبيذ •• فالخمر فى القطارات ، كالخمر فى البلاد كلها ، رفيق دائم للناس هناك •• وهى احدى العادات •• السلبية •• التى اخذوها عن الفرنسيين

معنى الغـابة

كان الجو داخل القطار أقرب الى جو رحلات الطلبة ..
أما خارج القطار فالذى يراه الانسان من النافذة ينقله الى عالم
آخر .. هائل فى روعته .. وفى فظاعته أيضا ..

عالم الغابة « البكر » ..

لا غابة السينما التى نراها فى أفلام طرزان .. والتى تتناثر
فيها الأشـجار المتباعـدة على أرض منبسطة تسمح بحـركة
الكاميرا ..

وانما غابة أخرى .. حقيقية .. لا شبر فيها يشبه الشبر
الآخر .. وليس بين أشجارها مسافة تسمح لقدم انسان ..

غابة لم يستكشف الانسان فيها الا ذلك الطريق الذى
يخترقه القطار .. لانه محـال أن يتحرك داخلها الا الثعابين
العملاقة ..

وطريق القطار فى الغابة معظمه انفاق ، ولكن الأشجار شيئا
فشيئا تتباعد قرب نهايته وظهر مسافات بين الأشجار .. حيث
تقفز القردة فى رشاقة ثم تلمح من خلال النافذة أسود ونمور ..
ثم أفيال .. تظهر وتختفى فى لمح البصر وبين وقت وآخر تنفرج
الغابة عن مدينة حديثة بها حمامات سباحة وفيهـا نساء بيض

بالمايوه .. نساء المستعمرين القدامى .. وقد تحول أزواجهن الى « خبراء » فى استغلال خامات البلاد .. ونهب ثرواتها الى عواصمهم ..

وينظر المسافر من النافذة فيشعر انه يقوم برحلة فى الجنة ..

جبال قممها مغطاة بالثلوج .. وأنهار متوحشة فى عربدتها وتدفقها .. وجداول رقيقة وسهول متسعة تضيق فجأة لتتحول الى نفق بين جذوع الأشجار المتلاحمة أمامنا كأعمدة من صخور الجرانيت التى لا تنتهى ..

وعلى طول الطريق تلتقى العين بنماذج من الناس لا شبه بينها الا فى اللون .. أقزام لا يزيد أطوالهم عن متر وربع .. وعمالقة يتجاوزون المترين .. ورجال فى أيديهم سمك قبضوا عليه فى ماء الجداول .. ونساء يحملن على الظهور أبناءهن .. وكتل من الموز يبدو أنها بلا ثمن .. وفتيات ساحرات الوجه .. رشيقات الجسم .. كأنما صاغهن أعظم الفنانين موهبة وصيادون يحملون حيوانات مشوية مجهولة وأجسامهم مصبوغة بالبرونز .. ومهنتهم الصراع مع الاخطار .. ومعظم نشاطهم يتم فى الليل !!

وتختفى الشمس .. فيسود ظلام لا يعرفه ولن يعرفه الا الذى يشهده بعينه .. ظلام الأحراش .. حيث تبدو الأدغال .. واشجارها والأصوات الغامضة المنبعثة من بين

أشجارها .. وكأنهـا قطع مرعبة من ليـل بهيم .. ثم يتسلل نور الفجر فى النهاية بعد سـاعات من الدقات الدائبـة على القضبان .. وعلى أعصابنا ..

أجمـل اعتـذار

ووصلنا أخيراً الى العاصمة ..

وبعد لحظات كنا فى السفارة المصرية .. حيث فهمنا كل ما حدث ..

لقد وصلت برقية صـلاح حافظ تنصح بأن نعود بالبحر وارادت السفارة أن تنقلها الينا ، فلجأت الى مدير الأمن لانه الوحيد الذى يملك جهازا لاسلكيا فى العاصمة .. ولكن المدير فهم أن المطلوب منه تنفيذ البرقية .. لا مجرد نقلها ..

وقال مصطفى حنفى ـ مستشار السفارة هناك .. والذى يشغل الآن منصب سفير مصر فى المانيا ـ وهو يتحدث تليفونيا الى المدير ..

ـ نحن طلبنا أن تبلغوا الصحفيين البرقية لا أن ترغموهم على تنفيذها ..

فقال المدير :

ــ آسف يبدو اننا اخطأنا وسنكتب اليهم فى القــاهرة لنعتذر ..

ــ فى القاهرة .. انهما هنا أمامى فى المكتب ..

ــ ... ...

ــ ألا تصـــدق

ــ غير معقول ، كيف حدث ذلك ؟

ــ لقد تمكنا من الهرب ووصلا الى هنا فى القطــار القادم من بوانت نوار ..

ــ هكذا ؟ اذن فقد تم الاعتذار لهما من الكونغو بأسرها فالرحلة التى قاما بها هى أجمل رحلة قطار فى العالم كله ..

ونظر المستشار الينا فهززنا رأسينا موافقين ..

فقد كانت بالفعل أجمل رحلة يمكن أن يقوم بها أى انسان عبر قطار .. يخترق أكبر غابات الدنيا ..

و .. بدأت مغامرتنا الثانية .. لدخول أنجولا ..

***

المشهد رقم (١٢)

مغامرة فى أدغـــال أنجولا

زرت أنجولا عام ١٩٦٥ عندما كانت مجرد كتائب تستعد فى أحراش الكونغو برازافيل .. تعرفت على قادتهـــا ..عندما كانوا مجرد ثوار على حدود بلادهم .. دخلت معهم أنجـــولا كصحفى مرافق لاحدى فصائل التحرير .. وبهـــذا كنت أول صحفى فى العالم يدخل أنجولا أيام كانت مستعمرة برتغالية .. لا يعرف عنها العالم شيئا ..

وهذه قصة المغامرة ..

***

لم يكن فى برنامج رحلتى الى افريقيـــا فى ذلك الوقت دخول أنجولا ..

فقد كان هذا المكان بالذات مغلقا على الصحفيين .. وكان الوصـــول اليه أصعب عندهم من الوصـــول الى القمر .. بل .. ولم يكن فى هذا البرنامج ـ على الاطلاق ـ شىء من المغامرة أو أى تفكير فى الحصول على خبطة صحفية كبرى ..

وكان كل ما طلبه منى صلاح حافظ رئيس التحرير هو القيام بدراســة صحفية « هادئة » عن البلاد التى سأمر بها .. عن شعوبها .. والأفكار الجديدة التى تجتاحها والمشاكل التى تواجهها .. بعد حصولها على الاستقلال ..

وضايقنى الا يطلب منى رئيس التحرير ســوى ذلك .. أو بمعنى (أدق) .. ضايقنى الا (ينتظر) منى رئيس التحرير أكثر من ذلك .. خاصــة ان رحلتى كانت ستتجاوز خـط الاستواء .. وستقترب من أشـــد المناطق الافريقية ـ وقتها ـ التهابا .. حيث مازال البرتغاليون يحـــكمون قبضتهم حول أنجولا وموزنبيق ..

و .. قررت أن افاجىء رئيس التحرير بشىء مثير ..

وعندما وصلت الى الكونغو برازافيل المتاخمـــة لحدود أنجولا كان رأيى قد استقر على دخول أنجولا خاصـــة عندما أخبرنى مصطفى حنفى مستشار ســفارتنا وسفيرنا فى آلمـــانيا الآن باننـــا ســنكون أول بعثــة صحفيـــة ـ فى العـــالم ـ تدخل الى أنجولا .. وتكتب تحقيقا مصورا عن ثورتها ..

وعرضت الفكرة على زملائى فى الرحلة ٠٠ ومن بعد مناقشات طويلة لم يوافق على مصاحبتى الى هناك سوى صحفى واحد ٠٠ هو الزميل المصور محمد سعيد ٠٠ لقد وافق ـ منذ اللحظة الأولى ـ على خطتى كاملة ٠٠ وبلا شرط ٠٠ بكل ما فيها من مصاعب واخطار ٠٠ أما الزميل على المغربى صاحب « أكذبة » كتاب (مواقف) ٠٠ فقد نفى عن نفسه من البداية (تهمة) أى رغبة لخوض هذه المغامرة ٠٠ وعاد ليكتب كلمات كاذبة عن (سبق صحفى مزعوم)

الاستعداد للرحلة المثيرة

ما علينا ٠٠

فى الكونغو برازافيل ٠٠ كانت فى انتظارنا مفاجأة غريبة مفاجأة قلبت خطتنا رأسا على عقب ٠٠

كنا نعتقد أننا سندخل الى هناك كصحفيين ٠٠

واذا بالشرط الأول لدخولنا هو أن نكون فدائيين ٠٠ وأن يكون لدينا فكرة عن استخدام السلاح

وصدفة ٠٠

لم يكن هذا الشرط يمثل عقبة بالنسبة لواحد منا ٠٠

صدفة .. كان محمد سعيد مصورا عسكريا ..

وصدفة ـ أيضا ـ كنت أحد الجامعيين الذين كان لهم شرف التطوع فى معركة القناة عام ١٩٥١ ..

ولم يوافق كمال زكى سفيرنا فى الكونغو على رحلتنـا المثيرة الا بعد ان استدعانا للسفارة .. واستجوبنا لمدة سـاعة كاملة وتأكد تماما من قدرتنا على اتمامها ..

وفى النهايـة كلف مستشار السفارة بأن يصحبنا الى مقر قيادة الثوار للاتفاق على الخطوط النهائية للرحلة ..

وبعد دقـائق ..

كنا فى مكتب قيادة الثورة فى مدينة برازافيل .. وهنـاك التقينـا (بمسيو لارا) أحـد أعضـاء المكتب السـياسى فى (الحركة الشعبية لتحرير أنجولا) .. والمعـروفة فى العـالم باسم (الامبالا) ..

والرجل هو مدير الشئون السياسية فى المكتب .. يتكلم بصوت هادىء جدا .. ألفاظه دقيقة محددة .. توحى بالصدق والثقة .. من ملامح وجهه الجـادة يمكنك أن تقرأ سـطورا هائلة من سنوات الكفاح .. وبالرغم من تلك الابتسامة العذبة التى لا تفارق شفتيه .. فان نظراته العميقة تشع بومضـات لا تنتهى من الحزن الدفين .. وتجعلك تستنتج فى سهولة ..

كم من الأحداث مرت عليه .. وكم فارق ـ وسط الميادين ـ من رفاق السلاح ..

وأخيرا تكلم الرجل ..

وعرض علينا الخطة كاملة .. أو بمعنى أدق .. الجزء الذى يجب أن نعرفه عن الخطة ..

قــال :

ـ غدا .. فى الساعة السادسة بالضبط عليكم باتتظارى على محطة العاصمة برازافيل .. قد اصحبكم بنفسى الى داخل أنجولا .. واذا كنت مشغولا .. فســوف يأتى معكم شخص آخر ..

ستركبون القطار لمدة ٧ ساعات .. ستنزلون فى محطــة (دوليزى) وهنــاك ستزوران فى مكان ما خارج المدينــة أحد مراكز التربية العسكرية والسياسية لشباب (الامبالا) ..

بعد ذلك ستكون فى انتظاركم سيارة جيب .. ستصحبكم الى أحد مراكزنا العسكرية على الحدود .. وهناك ستخلعون ملابسكم المدنيــة .. سيسلم كل واحد منكم زيا عســكريا ومسدسا وبعدها ستمشون حوالى ٢٠ كيلو مترا داخل الغابات وبعدها ستجدون أنفسكم داخل مواقع الثوار فى أنجولا ..

وعندما انتهى كلام لارا حاولت أن أعرف منه اسم الرجل الذى سيرافقنا فى حالة عدم مجيئه ..

أجاب فى حذر واقتضاب :

ـ ستعرفه فى الوقت المناسب •• وعلى كل سآمر عليك بفندقك فى الساعة السابعة مســاء لاعطى لك (التعليمات) الأخــيرة ••

وفى الساعة السابعة بالضبط كانت سيارة صغيرة تقف أمام الفندق وينزل منها مسيو لارا •• وجاء هــذه المرة يحمل معه حقيبة صغيرة ••

وفى صمت •• فتح الرجل الحقيبة •• وأعطانى خريطــة بخط سير الرحلة وأخبرنى انه لن يرافقنى لانشغاله بالاعــداد لمؤتمر زعمــاء حركات تحرير المستعمرات البرتغالية •• وان الذى سيرافقنا •• شخصية عسكرية هامة فى الحركة •• ثم نصحنى بان احمــل معى بعض العلب المحفوظــة •• اذا لم آكن أحب (الموز) لانه ســيكون الغــذاء الوحيــد الموجود فى الطريق الطويــل ••

وقبل أن ينهض •• قال له محمد عويس مدير فرع شركة النصر (بالكونغو برازافيل) : اننى أود أن اطمئن على رجوع الصحفيين ••

ورد عليه فى اختصار شديد •• أود أن تعرف اننا وضعنا كل الترتيبات لحمايتهم على طول الطريق •• ويكفى أن تعرف ان الذى سيرافقهم (هو) مدير الشئون العسكرية فى المكتب السياسى لحركة تحرير أنجولا ••

وبــدأت المغـــامرة

وفى الساعة السادسة ـ بالضبط ـ من اليوم التالى ..
كنا نقف على المحطة .. وبالرغم من أن ميعاد تحرك القطـــار
كان فى السابعة .. فلم يحضر مسيو لارا الا فى السابعة الا خمس
دقائق .. ومن بعيد شاهدت معه شخصا آخر بالملابس المدنية ..

وعندما اقترب منا قدمه لنا فى سرعة واقتضاب قائلا :

ـ مسيو كاريرا .. المسئول عن العمليات الحربيه لحركة
تحرير أنجولا .. وبعد دقائق كنت أجلس معه فى القطار ..
وعندما تحرك .. قال لنا فى شىء من المرح : يستحسن أن تناموا
فى القطار .. فأمامكم طريق شاق طويل ..

قالها ولم يترك لنا فرصة للمناقشة .. ثم جلس على المقعد
خلفنا و .. راح فى نوم عميق !!

وكاريرا .. رفيقنا فى الرحلة .. كان بمثابة وزير دفـــاع
حركة الامبالا .. وليس قـــائد ثورة أنجـــولا كما نشر عنه
أخيرا .. وقد أصبح وزير دفاع أنجولا فعلا .. فى أول حكومة
كونها « أوجستينو نترا » بعد تحرير أنجولا ..

وهو شـــاب فى حوالى السادســـة والثلاثين .. نحيـــل
الجسد .. ذو ارادة حديدية .. يعرف كل شبر من أراضى

أنجولا •• خاصـــة مسالكها السرية وسـط الغابات •• وهو أبيض اللون من أب برتغالى وأم أنجولية مثل معظم زعماء حركة التحريـر ••

وعندما استيقظ قبل نهاية رحلة القطار بقليل ••

سألته :

ــ ما سر هذه الظاهرة ؟

فقـال :

ــ أى ظاهرة •••

ان معظم زعمـاء الحركة ليسوا أنجوليين سودا •• بل معظمهم من السمر المخلطين من آباء برتغاليين وأم أنجولية ••

وضحك كاريرا قائلا :

ــ ان هذه الظاهرة هى أكبر مقلب شربه البرتغاليون ••

فقد كان من سياسـتهم الاستعماريـة •• الزواج العرقى بالأنجوليات حتى يكثر عدد المخلطين البيض والسـمر الموالين للبرتغال •• ولكن حدث ان معظم هؤلاء المخلطين أصبحوا أشد أعداء البرتغال فى أنجولا ••

وقلت : كيف ؟

ورد كاريرا •• السبب ينحصر فى السياسة التعليميـة •• وهذه السياسة قسمت الشعب الأنجولى الى ثلاث طبقات ••

* **الأنجوليون السود :**

وهم محرومون تماما من التعليم ..

* **المخـلطون :**

(أب برتغالى وأم أنجولية أو العكس) : يتعلمون حتى المرحلة الثانوية ..

* **البيــض :**

(أو الحاصلون على الجنسية البرتغالية) يتعلمون حتى المرحلة الجامعية وما بعدها ..

وبالطبع كان المقصود بهذا تشجيع الجميع على التقرب من البرتغال سواء عن طريق الزواج أو عن طريق الحصـول على الجنسية البرتغالية ..

وتتيجة لهذه السياسة تعلم المخلطون حتىالمرحلة الثانوية.. وفهموا شيئا عن مشكلتهم .. ومشكلة الاستعمار .. ومشكلة وجود البرتغال فى أراضيهم .. قصـة ذلك الأب البرتغـالى الأبيض الخبيث .. الذى تزوج اما أنجولية زواجا صـوريا ثم تركها تعانى الذل والفقر .. وتواجه الناس بابن غريب .. لا هو أسود ولا هو أبيض .. وبمستقبل أكثر غرابة ..

وسكت كاريرا القائد الثائر المخلط ، ثم قال :

ــ ومن هنا كانت ثورة (المخلطين) أكثر حقدا والتهابا.. ووعيا .. ومن هنا أيضا كان معظم قواد حركة التحرير منهم ..

الكادر السياسى للحركة

وعندما انتهى كاريرا من كلامــه كنــا قد وصــلنا الى (دوليزى) ..

كان فى انتظارنا بعض رجال الثورة ..

وكانوا يحملون خبرا هاما ..

ان المنطقة التى سنزورها .. وقع عليها هجوم عنيف من احدى الدوريات البرتغالية .. وقد اشترك الطرفان فى معركة عنيفة قتل فيها ٦٥ شخصا .. كلهم من البرتغاليين ..

واعتذر لنا كاريرا .. فقد اضطر ان يتركنا فى أحد المواقع السرية فى ضاحية بالمدينــة وقال لنا ان عليه أن يذهب لابلاغ الخبر للقيادة حتى تذيعه وكالات الأنباء (المحايدة) .. لأن معظم وكالات الأنباء (الغربية) لا تذيع خبرا واحدا فى صالح الثوار ..

وبعد ساعة واحدة عاد كاريرا بسيارة مدنية يقودها أحد الثوار ومضى بنا الى مكان بعيد عن المدينة وهو عبارة عن قصر مهجور وسط حديقة مليئة بالأشجار ..

وعندما طلبت من كاريــرا أن يعطينى فــكرة عن هــذا

المكان .. قال لى فى اختصار (انه أحد مراكز التربية السياسية) والعسكرية لثوار حركة امبالا ..

وفى هذا المكان تغيرت فكرتى تماما عن ثوار آنجولا ..

قبل زيارة هذا المكان .. كنت أعتقد انها مجرد حـركة عسكرية لا تقوم على أى أساس أيديولوجى أو ثقافى أو سياسى ..

وعندما خرجت .. كنت أحمل احتراما كبيرا لكل فرد من أفراد حركة الامبالا ..

وعلمت ان كل من ينضم لهذا المركز السياسى والعسكرى لابد أن يكون ــ أولا ــ أحد أعضاء حزب الامبالا ..

ومن أفراد هذا الحزب ينتقى بعض المتطوعين ..

وحتى هؤلاء .. لا يذهبون (مباشرة) الى ميدان القتال .. بل يمرون (أولا) على واحد من المراكز كالتى نزورها الآن ..

وفى هذا المركز تتكون العقلية السياسـية .. والعقليـة العسكرية العلمية للشخص المحارب ..

دخلت القصر السرى .. فوجدته ــ رغم تواضعه ــ مقسما الى ثلاثة أقسام :

＊ القسم السـياسى :

ويتلقى فيه الثوار ــ على أيدى مفكرى الحركة دراسـة

واسعة عن السياسة الدولية •• وعن تاريخ الاستعمار •• وخاصة الاســتعمار البرتغــالى •• ثم فكرة تفصيليــة عن الاقتصـــاد الأنجولى •• ومدى ما تحويــه أراضيهم من ثروات هائلة •• وكمية ما سرق ــ ويسرق سنويا ــ من هذه الثروات ••

*** القسم العســكرى :**

ويتعلم فيه الفدائى ــ على أيدى قادة الحركة أحــدث نظريات استخدام الأسلحة •• والمفرقعات •• وحرب العصابات الخاصة داخل الأدغال •• ثم يكمل هــذه الدراسة بتدريبات تطبيقية فى الأدغال المجاورة ••

*** القسم الطبــى :**

ويتلقى فيه المحارب ــ على أيدى بعض الأطباء برنامجــا محددا فى طب الميادين •• والاسعافات العسكرية •• والى جانب ذلك تقوم هــذه المراكز باسعاف الجرحى القادمين من المواقع العسكرية فى حالة وقوع هجوم شامل على احداها ••

ومن خلال مناقشتى مع مدير هــذا المركز علمت أن مهمة هذه المراكز (هى) الارتفاع (بالدافع الثورى) لدى المحارب الأنجولى •• ونقل هــذه الدوافع من مجرد مســتوى الغضب الشخصى •• أو الحقد على الاستعمار •• أو الرغبة فى الانتقام من الحوادث الفردية التى وقعت عليهم •• الى المستوى الفكرى والسياسى لحركة « الامبالا » ذاتها ••

وثانيا ـ توحيد هذه الدوافع الشخصية وربطها بهدف كبير لا يقف عند مجرد القتل والحرب .. ولكن يرتفع الى مرتبة ضرورة الحصول على الحرية لأنجولا ولغيرها من البلاد المستعمرة ..

ثالثا ـ اعداد القادة الذين يمكن الاعتماد عليهم بعد الحصول على الاستقلال .. حتى لا يحدث أى فراغ سياسى بعد خروج البرتغاليين .. خاصة ان بعض هذه المراكز ترسل لها مبعوثين للخارج من الآن .. يقومون ـ الى جانب الدعاية للثورة ـ بالتخصص فى دراسة فروع العلوم السياسية أو الاقتصادية الهامة ..

ومرة أخرى خرجت من هذا القصر السرى وأنا أشعر ان الكادر السياسى لحركة امبالا قد تم تنظيمه ووضع خطوطه الرئيسية بدقة تثير الاعجاب ..

الى انجولا

بعد أن أدى الجميع التحية العسكرية لمرافقنا .. كمدير للشئون العسكرية للحركة .. ركبنا السيارة وانطلقت بنا وسط طرق مليئة بالبرك والمستنقعات حتى وصلنا بعد ٤ ساعات من

السير المؤدى الى موقع عسكرى صغير على حدود أنجولا ..
وفى هـذا الموقع استبدلنا بملابسنا المدينة أخرى عسكرية ..
فاستلم كل منـا جاكيت وبنطلون كاكى ومسدسـا بخزانتين
و .. الباريه الخاص بثوار حركة امبالا ..

و .. انطلقت فرقتنا الصغيرة لأول مرة داخل أنجولا ..

فى المقدمة كاريرا .. ثم آنا .. فزميلى المصور .. و ..
(لابندا) أحد الثوار الذى كان يحمى مؤخرتنا ويحمل مدفعا
سريع الطلقات ..

وقبل أن نخطو خطوة واحدة داخل الحدود تكلم معنـا
كاريرا .. بلهجة عسكرية صارمة :

(بعد لحظات) سنكون داخل أنجولا .. سنمضى وسط
أدغال محاطة بالدوريات البرتغاليـة .. سنسير على أقدامنـا
٢٠ كيلو مترا .. سنقطع المسافة فى حوالى ٧ ساعات .. الكلام
وحتى الهمس ممنوع .. قد تضطر للانبطاح فجأة فى الطريق ..
اذا التقينا بطائرة استطلاع برتغالية .. أو كتيبة برتغالية ..

ومضى أمامنا الرجل ..

وسرنا خلفه صامتين .. لا نسمع سوى دقات قلوبنا ..
وبدأنا ندخل فى طرق غاية فى الوعورة ..

وكانت الشمس قد بدأت تميل الى المغيب ..

وبعد قليل كنا نسير فى ظلام دامس .. وسط أحراش أنجولا ..

كيصوندى .. كيصوندى

فى بداية الأمر كنا نسير وراءه فى منتهى النشاط ..

وبعد أن قطعنا خمسة كيلو مترات .. بدأنا نلهث .. وبدأ العرق يتصبب من كل مكان فى أجسادنا .. اضطررنا أكثر من مرة أن ننبطح على الأرض لتفادى احدى الدوريات البرتغالية واضطرت وجوهنا — أكثر من مرة — أن تلامس الأرض ..

وبعد قليل أصبح وجهى اكثر سوادا من وجه زميلنا الانجولى (لابندا) الذى يحمى مؤخرتنا ..

كل هذا استطعنا تحمله ..

حتى انحرف بنا كاريرا فجأة الى احدى الغابات ..

كان الظلام داخل الغابة شاملا .. والجو مشبعا بالرطوبة والحرارة الخانقة .. والأرض من تحتنا مبللة بمياه الأمطار .. وليست مستوية فهى ترتفع وتنخفض فجأة .. وكانت النتيجة الطبيعية هى الانزلاق عدة مرات الى منابع صغيرة للأنهار ولسوء الحظ كان الطريق ضيقا جدا .. فهو طريق سرى خاص

بالثوار .. وكان علينا ان نبعد أغصان الأشجار الكثيفة التى تعترض وجوهنا .. وان نمسك بها فى الوقت نفسه لتحمينا من الوقوع فى هاوية سحيقة كنا نراها على ضوء القمر .. وكانت تنتهى بمنبع مائى يعربد وسطه تيار جارف من المياه المنحدرة من الجبال المحيطة ..

وكل ذلك ـ أيضا ـ استطعنا تحمله ..

ولكن حدث فجأة .. ان وجدت جسمى ـ كله ـ قد ارتفعت درجة حرارته .. وعندما تحسست جسدى فى الظلام وجدت عشرات من الحشرات تسرع الى داخلى و .. (هات يا قرص) .. بلا شفقة ولا رحمة ..

ونسيت تعليمات كاريرا بعدم الكلام وصرخت فيه استفسر منه عما حدث لى .. ففوجئت به يقول لى ان نفس هذه الحشرات تملأ جسده الآن .. وان جسده يكاد يتمزق من اللسعات المسعورة ..

وصرخ محمد سعيد من ورائى يطلب النجدة ..

وعندما سألت كاريرا عن هذه الحشرات ..

وهل هى (ناموس) افريقى خاص يعيش فى الأدغال ولا نراه فى بلادنا ..

قال لى : لا .. انها حشرة توجد بالملايين ولا يتذكر اسمها الآن ..

وأمضينا ساعة فى عذاب قاتل •• حتى التقينا بمنبع ماء••
فأمرنا كاريرا بأن نقذف أنفسنا فيه دون أن نخلع ملابسنا حتى
تموت الحشرات على أجسامنا ••

و •• تمرغنا فى المنبع المائى •• وماتت الحشرات على
أجسادنا ولكنها ظلت قابضة بأنيابها •• حتى وصلنا متهالكين
الى الموقع ــ بعد ٥ ساعات ــ متواصلة •• وهناك فى المعسكر
خلعنا ملابسنا تماما •• وأخذ أحد الأطباء هناك يخرج من
أجسادنا مئات منها (بملقط) خاص •• ولم تكن لتخرج
بسهولة •• ولكنها كانت تنزع نزعا •• و •• امتلأت أجسادنا
بالدماء ••

ولهذا •• فقد أمرنا الدكتور أن نسرع جميعا ــ كما ولدتنا
أمهاتنا ــ الى منبع مائى كبير •• وان نخلص أجسامنا من الطين
والعرق والدم وأن نمكث هناك ساعة كاملة ••

وهناك •• أمضيت أحلى ساعات عمرى •• شعرت وكأننى
انتقلت فجأة من النار الى الجنة •• نار الطريق الطويل ••
والجسد المحموم •• ثم كان ذلك الاحساس الغريب بالتخلص
من كل شىء •• حتى الملابس •• فى حضن هذا المنبع المائى
وأحسست وكأنى فى حلم لذيذ بلا قيود •• ولا هموم ••
وأمضينا فى المنبع أكثر من ساعة •• استطعنا بعدها أن نسترد
بعض وعينا ••

وعندما عدت للمعسكر كان أول سؤال وجهته للطبيب :

ـ ما هى هذه الحشرة يا دكتور ؟

ـ انها (الكيصوندى) وهى حشرة خاصة من فصيلة النمل .. تمشى بسرعة هائلة .. فى طوابير لا يقل عدد الواحد منها عن ثلاثة ملايين .. ويبدو ان أقدامكم داست فى الظلام على طابور منها ..

وسكت قليلا ثم استطرد :

ـ وهذه الطوابير من (الكيصوندى) هى الشىء الوحيد فى الغابة الذى يقتل الفيلة .. ويطلق عليها الثوار لفظ (فيتنكونج) لسرعتها وخطورتها ..

ومرة أخرى .. كاد أن يغمى علينا ..

ولكننا ارتمينا على سرير من القش .. واسترخينا فى منزل مبنى من فروع الشجر قريب الشبه ببيوت طرزان حتى الصباح على تلك الأصوات الساحرة الغامضة التى تصدر من أعماق الغابة .. ثم نمنا بعمق ..

فقد وصلنا أخيرا الى هدفنا ..

وأصبحنا عند خط الدفاع الأول لثوار أنجولا ..

بل خط المواجهة ..

وقد كان هـــذا وحده كافيا لأن ننسى كل ما لاقيناه من أهوال •• وان ننسى كل أحزاننا •• وآلامنا •• ومخاوفنا ••

فقد عدت الى مصر بعدها •• لأكتب فى ديسمبر عام ١٩٦٥ أول تحقيق صحفى من داخل (مستعمرة) أنجولا •• عندما كان استقلالها مجرد حلم يراود خيـــال رجال (الامبالا) •• أو لجبهة لشعبية لتحرير أنجولا •• والتحقيق مسجل عـــام ٦٥ فى « آخر ساعة » •• وموضوعه خارج •• عن موضوع هذا الكتاب ••

••

المشهد رقم (١٣)

مغامرة فى أحراش موزمبيق

بعد مغامرة أنجولا ..

دخلت موزمبيق عام ١٩٦٨ .. عندما كانت مجرد مستعمرة برتغالية محرم دخولها على الصحف العربيـة والافريقيـة .. أصبحت أول صحفى يدخل هـذه المنطقـة ولتحقيق ذلك قمت بمغامرة صحفية مثيرة مع زميلى المصور .. وحمل كل منا اسما مستعارا واخترقنا حدود موزمبيق وقطعنا على الأقدام عشرات الأميال فى قلب افريقيا .. لتقديم أول تحقيق مصور من داخل موزمبيق ، لتسجيل بطولة ثورة من اعتى ثورات العصر طولا وصبرا وصمودا .

ولم يكن الغرض من هذه المحـاولة .. هو مجرد الرغبة فى القيام بمغامرة صحفية رغم كل ما لاقيناه من اخطـار ، ولم

يكن الهدف كذلك مجرد الميل الى كتابة موضوع مثير .. رغم ان كل ما فيها كان مثيرا ..

كل ما هنالك .. اننا عندما وصلنا الى تنزانيا واقتربنا من أشد المناطق الافريقية التهابا .. لفت نظرنا ذلك العدد الكبير الذى يعيش فى عاصمتها من الثوار .. وعلى رأسهم ثوار موزمبيق ..

وعندما التقينا بزعماء هذه الثورة ، ذكرتنا أحاديثهم بما يجرى فى منطقة الشرق الأوسط فى ذلك الوقت من أحداث .. انهم يقودون حركة عنيدة لتحرير أرضهم من عدو عنيد .. ورغم ان البرتغال بلد صغير .. فانه يحتل مساحة هائلة من افريقيا وتتحدى شعوب القارة كلها ..

تماما .. كما تفعل اسرائيل مع العرب ..

وكما ان اسرائيل لا تقف وحدها .. فكذلك كانت البرتغال .. وراء كل منهما قوى الاستعمار العالمية .. وعلى رأسها أمريكا ..

ولم تكن المسألة سهلة ..

كان علينا أن نخترق حدود موزمبيق ، أن نحصل على اذن خاص من رئيس جمهورية تنزانيا .. ولكن اصرارنا على الدخول الى جانب المساعدة الايجابية التى قدمها لنا (موجوبى)

السكرتير التنفيذى للجنة تحرير افريقيا ومساعدة الدكتور سامى ممثل مصر فى اللجنة فى ذلك الوقت .. ذللت أمامنا كل العقبات .

وبعد حوالى أسبوع من الانتظار القاتل .. حصلنا على الاذن الخاص من نيريرى الرئيس التنزانى ، وبدأت اجراءات لسفر السريعة والغريبة معا ..

أول هذه الاجراءات .. تغيير اسمائنا الى أسماء أخرى . أصبح اسمى (م. ساندو) ، واسم المصور محمد سعيد (س. جونسون) .. وبهذه الاسماء المستعارة الجديدة ، قام بعض رجال الثورة بقطع التذاكر لنا على احدى طائرات الخطوط المحلية التنزانية .. لنصل الى مدينة « ميتواترا » ، القريبة من حدود موزمبيق ..

لم أعر حكاية تغيير الاسماء أهمية أول الأمر ..

ولكن بعد أن أقلعت الطائرة بنا .. سألت مرافقنا فى الرحلة عن سبب حرصهم على تغيير الاسماء .. مع ان مهمتنا ليست سوى مهمة صحفية فأفهمنى ان للبرتغال جواسيس فى تنزانيا .. وانهم فى احدى المرات خطفوا شخصية هامة كانت على وشك دخول موزمبيق مثلنا .. وان الطائرة يقودها أوربيون .. وانها تسير على ضوء الاشارات التى ترسل اليها من أبراج

المراقبة فى روديسيا الجنوبية أوربيو ايضا •• وهى المستعمرة التى أصبح اسمها (زمبابوى) بعد الاستقلال ••

بعد هذا الكلام وجدت مبررا لهذا الحرص •• وودت فى أعماقى لو زاد هذا الحرص بعدم ركوب هذه الطائرة أصلا •• لأن معنى كلامه ان قائد الطائرة يمكنه أن يغير طريقه من حدود موزمبيق •• الى حيث يسلمنا للبرتغاليين ••

ومرت فترة من الصمت الثقيل••بعد سماعى هذه الملاحظة المزعجة••وبينما كانت عيوننا مفتوحة فى قلق ، راح «مارسلينو» رفيقنا فى نوم عميق •• ولم توقظه سوى حركة احتكاك عجلات الطائرة بأرض مطار مدينة (ميتواترا) الميناء الهادىء الجميل وحسب الخطة المرسومة لحماية رحلتنا •• وجدنا فى انتظارنا عربة جيب أخذتنا مباشرة من المطار بعيدا عن قلب المدينة الى مكان بعيد فى ضاحيتها •• ووجدنا أنفسنا أمام فندق مطل على المحيط الهندى •• فندق مجهول المكان والاسم ••

ونزلنا فى حجرتين منفصلتين بنفس الاسماء المستعارة •• فى كلمات قصيرة ومحددة قال لنا مارسلينو بعد أن نظر فى ساعته التى كانت تشير الى السادسة مساء :

ـ سنستريح هنا ساعتين • وسننام فى الثامنة بالضبط وسنستيقظ فى الساعة الثانية صباحا •• ستحملنا عربة (لاندروفر) •• لتمضى بنا حوالى ٢٠٠ ميل الى مكان ما ••

قرب حدود موزمبيق •• ومن هناك ستبدأ رحلتنا على الأقدام
داخل أحراش موزمبيق •• بعد عبور نهر على تلك الحدود

الطـريق الطويـل

وصلنا و (اللاندروفر) الى قرب حـدود موزمبيق بعد رحلة صعبة في طرق غير معبدة •• وبدأت رحلتنا على الأقدام من احدى القرى التنزانية ••

الطريق طويل •• كطول عمر الثورة الموزمبيقية •• محفور بأقدام الثوار •• ضيق •• لا يتسع الا لمسيرة شخص واحد •• ملىء بالأحجار والمطبـات •• مغطى على الجانبين بالحشـائش الطويلة •• والأشجار الاستوائية الضخمة •• مشينا ميلا وميلين بنشاط •• وبعد هـذا النشاط بدأ النشاط يتآكل ويذوب تحت وطأة حرارة الشمس وقسوة المرتفعات والمنخفضات •• والطريق يلتوى أمامنا ويدلف وسط أدخال قاسـية لا علاقة لها بكل مشاهد الغابة السينمائية •• فغابة السينما حالمـة جميلة مسطحة الأرض أما غابة الواقع •• أو بمعنى أدق الغابة التى اخترقناها•• فهى قاسـية •• خانقة •• مليئـة بالحشرات وطوابير النمـل الخطيرة •• والأرض التى نمشى عليها تختلف عن تلك الأرض

المسطحة التى كنا نشاهد طرزان يركض عليها وراء الحيوانات المفترســة ..

فهى هنا تنخفض وترتفع تحت الأقدام لتدمى الأصابع .. وترهق الأجساد .. هــذا علاوة على الأصوات الغامضة التى يتردد صداها من حين لآخر من أنحاء مجهولة وتثير فى الاوصال الرهبة والفزع .. صوت الأدغال الغامض .. لا تستطيع أن تميز فيه صراخ حيوان مهزوم .. أو صيحة طير منتصر ..

الطريق لا يريد أن ينتهى ..

والدهشة تسيطر علينا ـ أنا وزميلى المصور ـ من السهولة التى يمشى بها مارسلينو ورفاقه .. فبينما كان التعب القــاتل يتسلل الى كل خلية من أجسادنا .. كان رفيقنا وصحبه يمشون وكأنهم فى نزهة خلوية على كورنيش النيل .. وبعد ساعتين من الارهاق الشديد .. وصلنا الى نهر (روثوما) .. الخط الفاصل بين تنزانيا وموزمبيق .. وفى مكان ما .. كان هناك قاربان فى انتظارنا .. القاربان محفوران داخل جذوع الشجر ..

وقرر مارسلينو ان يقسم فريق الرحــلة الى مجموعتين كل منهما يأخذ قاربا الى شاطىء موزمبيق .. وركبت أنا فى واحد منهما .. وتبعنا سعيد فى القارب الآخر ..

كان مجرى النهر يندفع فى وحشية ككل أنهــار المنطقــة

الاستوائية القريبة من المنابع ..والقارب الرفيع يندفع ــ أيضا ــ في سهولة .

انتهت رحلة العبور في عشرين دقيقـة .. كانت سعادتنا وقلقنا عظيمين وأقدامنا المرهقة تلامس أرض موزمبيق .. احدى مناطق المقاومة الملتهبة في العالم .

وفجأة قال صوت مارسلينو وهو يتكلم في شيء من الحزم:

ــ علينا الآن أن نسرع من هذه المنطقة .. لا توجد هنا أشجار يجب علينا أن ندخل منطقة الأدغال مرة أخرى في سرعة.. هنا يمكن لطائرات العدو أن تحصدنا في دقيقة واحدة ..

بعد هذه الكلمات ..

شـعرت ان جميـع المتاعب التى حلت بنـا تبخرت .. وأحسست بقوة خفية تتقمص الأقدام .. كل الأقدام .. وفي أقل من ساعة واحدة كنا نمضى مرة أخرى داخل الطرق السرية في أدغال موزمبيق الكثيفة ..

وبدأ الظلام يلف كل شيء حولنا .. رغم اننا في منتصف النهار .. لم أعد أرى سوى أقدام مارسلينو التى تتحرك دائما في خفة مذهلة .. ولم أعد اسمع سـوى أصوات الأنفـاس اللاهثة .. أما الخطر فلم يعد أحد يشعر به رغم انه أصبح يحيط بنا من كل جانب .. من فوقنا ومن تحتنا ..

وكان أبسط هذه الأخطار جميعا .. هو احتمال انقضاض أحد الثعابين الكبرى فى آية لحظة علينا .. ولهذا كان مرسلينو ينصحنا دائما بالاسراع .. وأشار الى بعض الأغصان البعيدة وقال لى : هذه واحدة .. من الأفاعى

وباختصار كان طولها حوالى خمسة أمتار ، وقطر جسمها حوالى نصف متر ..

و .. مضى بنا الطريق الطويل .. يرتفع وينخفض .. يلهث بنا ونلهث منه .. حتى سمعنا من بعيد أصواتا لم تتبين نوعها للوهلة الأولى .. وعندما اقتربنا منها .. بدأت تتضح.. رجال ينشدون بعض الأناشيد ..

كيف يحدث هذا فى موقع سرى ..

ورد مارسلينو : انه معسكر (ليبودى) أحد قواعدنا العسكرية السرية .. صحيح ان هذا المكان هو أحد المواقع السرية للثوار .. ولكنه يقع داخل احدى المواقع المحررة .. ورغم اننى كنت فى غاية الارهاق والعطش .. فقد بدا هذا الكلام غريبا .. كيف يكون موقعا سريا .. ثم نستمع فيه الى أناشيد .. وما هى حكاية المناطق المحررة من موزمبيق .. وعشرات الأسئلة لمحها تتراقص على طرف لسانى كل من مارسلينو و (البرتو ميكاكويتو) قائد معسكر (لوبودى) الذى وصلنا

اليه •• قال الجميع استرح أولا •• نشرب ونأكل ونلتقط الأنفاس •• ثم قد يتسع الوقت ـ نيلا لكى نشرح لك كل شىء ••

اختيار المقاتل

بعد فترة من الراحة •• بدأت أفهم كل شىء ••

ان المعسكر الذى وصلناه منذ قليل •• هو أحد المعسكرات السرية داخل احدى المقاطعات الثلاث المحررة فى موزمبيق ، وموزمبيق تنقسم الى سبع مقاطعات هى : مانيكيسوفالا ، وزامبيزيا ، وموزمبيق ، وجازا ، ونيتى ، ونياسا ، وكبود لجادو، وقد تم حتى الآن (١) تحرير :

* تيتى
* ونياسا
* وكبود لجادو

ونحن الآن فى مقاطعة (كبود لجادو) شمال موزمبيق وهى المناطق الملاصقة لتنزانيا ••

كانت مساحة المناطق المحررة من موزمبيق عند وصولنا

---

(١) اغسطس عام ١٩٦٨ م •

عام ١٩٦٨ خمس مساحة موزمبيق كلها •• وقد وضع الثوار خططهم الاستراتيجية على أساس القيام أولا بتحرير جميع المناطق الريفية والقرى •• وفى الريف يتم تقوية هـذه المناطق وتدعيمها •• وخلق الكوادر السياسية والعسكرية والفنية بعد ذلك يمكن الانقضاض على المدن وتحريرها ••

ولكن كيف كان يتم خلق هذه الكوادر ••

وكيف كان يتم اعداد المقاتل •• فى هذه الحقبة الذهبية من عمر افريقيا ••

الحقيقـة ان المسألة لم تكن تمضى عبثا ، ولكنهم كانوا يتبعون الأسلوب العلمى فى خلق المحـارب ، ولولا هذا لتحولوا الى مجموعة من الغاضبين بدلا من أن يصبحوا مجمـوعة من الثوار •• والفرق بين الرجل الغاضب والرجل الثورى فرق كبير ••

الرجل الغاضب يمكن أن ينضم لك لأن العدو استولى على منزله فقط •• أما الرجل الثورى فانه يحارب معك لأن العدو استولى على بلده ••

ومن هنا أصبحت مهمتهم هنـاك •• تحويـل الدوافـع الشخصية للمحـارب ــ ان وجدت ــ الى دوافع موضـوعية ثوريـة ••

هكذا قال لى مارسيلوس ردا على سؤالى •• ومن هـذه الاجابة الناضجة اكتشفت أن مارسلينو الذى كنت اعتقد انه مجرد محارب مكلف من قبل الحركة بمرافقتنا الى موزمبيق •• انه واحد من أهم قادتها •• وانه مسئول عن التوجه السياسى لكل أفرادها •• وانه عضو اللجنة المركزية بها ••

ولم تكن هذه المفاجأة الوحيدة التى اكتشفتها فى الأشخاص الذين يرافقوننا ••

فهناك أيضا « ماسلاما » •• كان يمضى فى بداية طابورنا وكنت اعتقد انه مجرد مرشد للرحلة ••

ولكننى عندما وصلت للمعسكر السرى ـ وجدت قائد المعسكر (البرتو) ينتفض أمامه فى تحية عسكرية صارمة •• ويقف أمامه وقفة استعداد لتلقى أى اشارة أو أية أوامر ••

ولما سألت عنه قيل لى انه أحد القواد العسكريين وانه يرأس ثلاثة معسكرات سرية فى مقاطعة كابود لجادو ••

ورغم هذا فلم يكن هذا القائد الصغير الجسم يتورع عن حمل شنطة زميلى المصور محمد سعيد الملية بالأفلام ليخفف عنا متاعب الطريق ••

وهكذا كانوا جميعا ••

ولكن كيف يجمعون المقاتلين •• وكيف يخلقون منهم شيئا يصلح للنضال والحرب •

وعاد مارسيلينو وسانتوس يقول :

ـ نحن لا نجمع مقاتلين •• ان حركتنا ليست مجرد حركة عسكرية •• انها حركة سياسية شاملة •• نحن نجمع الناس من القرى •• ونحاول أولا ان نحولهم الى أفراد منظمين داخل الحركة •• وفى البداية لابد أن نعطى لكل واحد منهم جرعـة سياسية سريعة •• يفهم كل منهم فيها شيئا عن موزمبيق والبرتغال وقصة الاحتـلال •• وحتمية الكفاح المسـلح لاخراجهم من بلادنا ••

بعد هذا يترك لكل فرد حرية الانضمام لاحدى القواعد العسكرية السرية للحركة •• أو الاكتفاء بان يظل مجرد عضـو مدنى فى الجبهة •• وحتى اذا انضم احدهم لهذه القواعد فان التربية والتوجيه السياسى تكون فى انتظاره بجانب التدريبات العسكرية •• وكذلك بعد أن يلتحق المحارب باحدى الفرق •• ويدخل فى معارك مع البرتغاليين فان التوجيه السـياسى لابد أن يأخذ مساحته الموقوتة بين المعارك ••

وفى كل معسكر حربى يوجد (قوميسير)••وهو المسئول السياسى عن المعسكر •• هناك جلسات سياسية بعد المعارك •• ومناقشة موضوعية لاخطـاء كل معركة والدروس الايجابيـة المستفادة منها ••

مـــدارس سياســـية

ولكى نعرف أن حركة تحرير افريقيا •• لم تنجح عبثا •• فاننى أسوق لك ما شاهدناه فى أحد المعسكرات السرية القريبة من معسكر (ليبودى) •• بموزمبيق كان هناك مجموعة من المحاربين وأمامهم سبورة •• اعتقدنا انهم يأخذون درســا نظريا فى استعمال سلاح جديد •• ولكننا فوجئنا انها احدى المدارس السياسية الموجودة فى بعض المعسكرات وعلمنا ان لهذه المدارس برنامجا معروفا •• ومدة محددة للتخرج وانهم يدرســون فى هذه المدة :

* تــاريخ موزمبيــق ••
* تــاريخ حركات التحريــر التى سبقت حــركة تحريــر موزمبيــق ••
* جغرافية البلاد وثرواتها ••
* لمــاذا حاربت وتحارب افريقيا الاستعمار ••

وعلمت بعد ذلك ان هذه المدارس تعتبر مدارس سياسية (أولية) •• وان هنــاك مدارس أكثر تخصصا يدخلها قادة محاربون •• لديهم استعداد للتربية السياسية •• وتولى العمل الســياسى بعد الاســتقلال •• أى انها مدارس لخلق الكوادر السياسية للثورة •• من الآن ••

اطلعت على برنامج هذه المدارس العليا ، وفعلا كل برامجها أكثر تخصصا وأهمية •• فهم يدرسون مثلا :

* معلومات عن افريقيا ـ تاريخها ـ حاضرها ـ مشاكل التنمية بها ••

* أيديولوجية الرأسمالية والاستعمار •• وفلسفة قادتها فى ضرورة السيطرة على ثروات العالم •• مع دراسة تطبيقية لما يحدث فى موزمبيق ••

* معنى الدولة والأمة •• والفرق بين الولاء للدولة والولاء للقبيلة ••

* التنظيم الحزبى وضرورته ودوره السياسى •• وأهدافه •• وهو نوع من التنظيم الذى يجب أن يطبق فى المناطق المحررة لكى يبدأ شعب موزمبيق حياة متحضرة ••

ولم يكن يشترطوا ايمان كل المحاربين بالاشتراكية •• لانهم يرون انه ليس من المهم فى وقت الأزمات والحروب •• وتعرض البلد لخطر الاحتلال أن يحتدم النقاش عن النظام الاجتماعى أو الأيديولوجية التى يؤمن بها المحارب •• يجب أن تأخذ هذه المناقشات ـ ولو مؤقتا ـ خطوة الى الوراء ••

وبعد ذلك كل شيء يمكن أن يصبح سهلا بعد الاستقلال وزوال الخطر •• والتخلص من العدو المشترك ••

وهكذا تحولت ثورة موزمبيق ــ على يد « الفريميليو » ــ الى ثــورة منظمــة ناضجــة لها استراتيجيتهــا السياســية والعسكرية معا ••

أما قبل سبتمبر ١٩٦٢ فقد كانت قضية موزمبيق موزعة بين ثلاث منظمــات هى (الاندناور) و (الرانو) و (الانامو) له وقد توحدت هــذه المنظمات جميعا فى سبتمبر عام ١٩٦٢ فى جبهة واحدة أطلق عليها جبهة تحرير موزمبيق والتى تعرف الآن بحركة (الفريميليو) ••

وقررت هــذه الجبهــة فى مؤتمرها الأول الذى عقد فى دار السلام ان تتم عملية تحرير موزمبيق بقوة الســلاح •• وبقوة السلاح فقط •• وذلك بعد ان يئست الحركات السابقة من الوصول الى حل سلمى مع البرتغال •• وقضية موزمبيق تختلف عن جميع قضايا التحرير فى شىء واحد ••

ان الدولة المستعمرة وهى البرتغال •• كانت ترفض تماما الخروج من مستعمراتها الافريقية •• لأن سياستها الاقتصــادية مرسومة منذ القرن السادس عشر والذى تم فيه الاحتلال على أساس الاعتماد على ثروات كل من موزمبيق وأنجولا ••

وباختصار فالبرتغال دولة فقيرة •• وكان تفــكيرها غير حضارى •• ولم تكن تعترف بحركة التاريخ ولم تكن قد نظمت

اقتصادياتهـا ولم تعد نفسـها لذلك اليوم الذى ستخرج فيه من افريقيا .. كما فعلت انجلترا وفرنسا مثلا ..

الليـل الحاسـم

وبهذه الجدية وعلى هذا المستوى من النضج شاهدنا رجال الحركة .. وهم يحاربون .. وهم يتدربون .. وهم يستعدون للمعـارك .. وهم قادمون منها .. انهم ليسـوا مجموعة من الساخطين تحمل السلاح لاطلاق الرصاص على عدو مجهول الحجم والقوة .. انهم يعلمون الكثير عنه قبل أن يجدوا أنفسهم أمامه .. ويعرفون انه أكثر منهم عددا وأقوى سـلاحا ، وقد قرروا ـ رغم هذا ـ حتمية الحرب معه .. وعرفوا الطريقة المثلى لتدميره وتحطيم معنوياته ..

عرفوا فى بداية الكفاح ان على ١٥٠ منهم مجابهة ٤٠ ألف برتغالى فاتبعوا تكتيك (اضرب واهرب) .. لارهاق العدو .. وخلال ست سنوات أخذوا يضاعفون عددهم من المحاربين دون أن تتوقف الحرب لحظة واحدة .. فلابد أن يظل العدو فى حالة ذعر وتعب مستمر ..

وقــد تعب العدو فعــلا •• فترك لهم الريف أولا •• ثم المدن •• وأخيرا العاصمــة •• حيث حصــلت موزمبيق على استقلالها ••

عندما يقرر العراة

ورغم أنني •• زرت موزمبيق والتحمت بثوارها •• فلم أكن أعتقد انها ستحصل على استقلالها بهذه السرعة فقد رأيتهم داخــل الأحراش لا تستر أجســادهم ســوى بعض المــلابس الممزقة •• لا يملكون سوى بعض الأسلحة البسيطة •• التى تهبها لهم بعض الدول •• يقفون تحت الأشجار المهددة بقنابل النابالم البرتغالية •• لا مأوى لهم سوى بعض العشش الخاوية من الطعام و •• من كل ملذات الحياة •• ولكنهم كانوا يجمعون على قرار واحد •• القتال حتى تحرير موزمبيق ••

انها قرارات من لا يملك شيئا••ضد من يملك كل شيء••

قرارات من لا مأوى لهم •• ضد من احتل كل مأوى ••

قرارات من يحمى نفسه ببندقية تبحث عن رصــاص •• ضد من يحمى نفسه بطائرة تطلق الصواريخ ••

قرارات من عراة •• لا يملكون سوى حق غير معترف

به •• وثورة ضد عدو عنيد كانت تحميه أمريكا •• وقوى حلف الاطلنطى •• وكل قوى الظلم والشر فى العالم ••

ولذلك •• كان تأثرى بالغا •• وأنا أودع قادتهم فى آخر معسكر زرته •• وهؤلاء الثوار يقفون فى صلابة •• يستقبلون احدى الوحدات العائدة من معركة عنيفـة مع البرتغاليين •• بنشيد يلهب الحماس ويذيب كل يأس ••

نحن ثوار الفريميليو ••

سنحارب العدو فى كل مكان ••

فوق الروابى وتحت سفوح الجبال ••

سنحارب حتى الموت •• من أجل تحرير موزمبيق••

لا •• بل من أجل تحرير افريقيا كلها ••

افريقيا كلهـا ••

كان تأثرى كبيرا وأنا أسمع كلمة « افريقيا كلها » من أفواه هؤلاء الثوار العراة ••

وسألت مارسيلينو ونحن فى :

ــ أليس هذا نوعا من الخيال ••

ورد مارسيلينو على الفور :

ــ وما الخيال فى هـذا يا أخى •• انهم ثوار •• ومهمـة

الثائر فى أى زمان ومكان •• تحويل الخيال العظيم •• الى واقع أعظم ••

و • لم أجد ما أقوله •• سادت بيننا فترة من الصمت ••

سرحت خلالها فيما قاله لى مرافقى مارسيلينو فى الليلة الماضية عن فظائع البرتغاليين وكان أفظع هذه الحوادث •• انها جمعت قادة احدى الحركات الثورية التى قامت ضدها •• وضعتهم فى طائرة ارتفعت بهم فوق احدى بحيرات موزمبيق ثم قامت بقذفهم جميعا — وهم مقيدون — فى هذه البحيرة •• أمام عدد كبير من المواطنين ••

عندما تذكرت هذه الأحداث المتوالية ضد الثورات الموزمبيقية •• وظروف البرتغال وفقر بلادها •• الذى يجبرها على عدم الخروج من أنجولا وموزمبيق •• رغم خروج بلد عظمى كبريطانيا من جميع مستعمراتها فى افريقيا ••

وجدت نفسى أعود لمناقشة مارسيلينو :

— ولكن ألم تصب هذه الأحداث نفسية الشعب الموزمبيقى ؟

ورد وهو مازال مصرا على الايجاز :

— نعم اصابته •• ولكن بمزيد من المرارة والحقد •• وبالتالى بمزيد من الاصرار على الاستمرار ••

وقلت له :

ـ ولكن هذا الاستمرار اللانهائى •• الا يصيب البعض بالتعب ؟

قـال :

ـ بالطبع •• كأى ثورة طويلة •• هنـاك باستمرار من يسقط فى الطريق •• انهم يصـابون بمرض معروف الآن فى الدوائر الثورية •• ويطلقون عليه التعب الثورى ••

قلت :

ـ التعب الثورى ••

قـال :

ـ نعم •• وهذا المرض من أعظم المشـاكل التى تواجه الثورات وبالذات الثورات الطويلة المماثلة لثورة موزمبيق ••

ثم استطرد :

صحيح أن « التعب » الثورى مرض •• ولكننا نرى فيه مصفاه •• لتنقية حركة نضالنا من الضـعاف والمخادعين •• والانتهازيين وتجار الثورات ••

طائرة برتغالية مؤقتا

وعند هـذه النقطة من الحديث .. كنا قد وصلنا على الأقدام فى طريق العودة الى آخر نقطة من حدود موزمبيق .. الى نهر روثوما .. الذى يفصـل موزبيق عن حدود تنزانيا .. كان القارب فى انتظارنا .. رمينا أجسادنا داخـله .. فلم تعد أقدامنا المرهقة تقوى على احتمال أجسادنا .. مضى القـارب الافريقى الرفيع يشق لنهر .. لاحت منى التفاتة لاهثة الى وجه زميلى المصور وكدت لا أعرفه .. كان فى منتهى الاعياء وقال لى بصوت خافت .. اننى بعد النهر .. لن أستطيع أن أخطو على قدمى خطوة واحدة وعبر لى فى النهاية عن قمة ما يحس به من ارهاق فقـال :

ـ اننى أرغب الآن فى ان أقذف بنفسى فى النهر .. على مواصلة الطريق على الأقدام .. وأحسست بخطورة الموقف .. فعندما يقول زميلى هـذا .. وهو لا يستطيع السباحة .. فمعنى ذلك انه تعدى مرحلة التعب الى ما هو أقسى منها الى شبه رغبة فى الانتحار .. ولكننى أحسست أنه متعب فعلا ..

فى هـذه اللحظة مرت طائرة فوق النهر .. ولاحظت ان محمد سعيد لا يكاد يشعر بها .. ونظرت الى مارسيليتو ..

فلاحظت انه قلق علينا •• ان مهمته ان يذهب بنا الى موزمبيق ويعود بنا سالمين •• ان موتنا يعنى فشل مهمته ••

وقال لى : انني لم اتضايق من رؤية طائرة برتغالية قدر ضيقى الآن •• رغم أن رؤية الطـائرات البرتغالية فوق أدغال الثوار شيئا عاديا لدرجة اننا عندما ذهبنا لزيارة أول معسكر سرى •• وقف مارسيلينو ليقول أمام حطـام بعض المواقـع المحترقـة :

ـ يبدو ان المعسكر قد ضرب بالقنابل ••

وانتقل بنا الى مكان آخر ليقول لنا •• لقد غير المعسكر موقعـه هنا •• وأشار الى معسـكر جديد •• التقينا بأبنائه ليرووا لنا فى ايجاز ان طائرة برتغالية هاجمت معسكرهم بالقنابل منذ أسبوع ••ولم يصب سوى مقاتل واحد بجراح ••ولكن قلق مارسلينو زال •• بعد اختفاء الطائرة •• واقتربنا مرة أخرى من شاطىء العودة •

وبعد أن نزلنا من القارب •• شعرنا ان المصور محمد سعيد لا يقوى على الوقوف •• حملنـاه تحت ظـل شـجرة حتى يستريح •• فقد كان لابد لنا أن نواصل لنلحق طائرة حجزنا عليها لتحملنا الى دولة افريقية أخرى •• ولكن ما أن أنزلناه على الأرض حتى قام ليفرغ كل ما فى بطنه ••

وحتى تتمكن من اللحاق بالطائرة •• تم الاتفاق على صنع

نقالة عاجلة من فروع الشجر لحمل محمد سعيد و .. قام اثنان من الثوار بحمل النقالة .. ســار الموكب فى بطء القائــد فى المقدمة .. أنــا بجانب النقالة فى الوســط .. بعض الحراس المسلحين فى المؤخرة .. مضت ساعة بهذا الوضــع تحت حرارة الشمس اللافحة .. لم تكن هنــاك سحب وشــعرت ان كل الظروف تتعاون فى عدم اللحاق بالطائرة .. حتى الشجر الذى كان حولنا .. كان أغصانا بلا ورق ..

و .. جاء منحدر كبير ..

ولم يستطع حاملوا النقالة ان يحفظوا توازنهم .. وأخذ الثوار يتبادلون حمل النقالة من التعب .. وشعر محمد سعيد انه يزيد من ارهاق من حوله وقرر ان يتحامل على نفســه .. ويجر أقدامه ويمشى بأى ثمن ..

و .. سار الركب مرة أخرى ..

حتى رقد محمد سعيد مرة أخرى .. بعد أن أصبح بيننا وبين السيارة التى ستحملنا للطائرة أقل من ميل واحد ..ولكنه كان أصعب أميال الرحلة .. ميل يرتفع .. حتى القمة .. حيث تقبع السيارة التى أصبحت حلم كل منا .. وخــاصة محمــد سعيد ..

و .. اقترح أحدهم أن تنزل الســيارة لتصعد بمحمــد سعيد .. ولم يعارض أحد .. وذهب أحدهم وأحضر السيارة

فى صعوبة بالغة حتى السفح •• وركب محمد سعيد •• وركبنا معه •• وأخذت عجلات السيارة تدور فى طريق غير معبد اطلاقا للسيارات •• حتى وصلت الى منتصف الجبل •• وبدأ الموتور يزمجر فقد توقفت السيارة تماما ورفضت أن تتقدم خطوة واحدة وتعددت المحاولات اليائسة من سائق السيارة •• بين هبوط وصعود ••

وفجأة اختل توازن قدم السائق بعيدا عن موقع « الفرامل » •• وهوت السيارة بنا فى سرعة مذهلة نحو سفح الجبل •• مرة أخرى

و •• لحقتنا العناية الالهية •• وعثرت أقدام السائق على الفرامل فى آخر لحظة •• بينما كادت مؤخرة السيارة تصطدم بصخرة عاتية ••

ونزلنا •• ونصحت محمد سعيد بضرورة الابتعاد عن هذه السيارة ومحاولة صعود الجبل بأى ثمن •• وامتثل محمد سعيد للكلام •• وبدأ يحفر بأقدامه فى ظهر الجبل بخطوات هائلة •• مرهقة مكدودة••ومرت بنا الدقائق وكأنها سنوات •• كانت أرجلنا تتعثر وكأنها مكبلة بأطنان من الحديد •• حتى وصلنا بصعوبة للقمة و •• لكن السيارة أصبحت فى السفح وكان علينا أن ننتظر ساعات حتى يجد السائق طريقة لتصعيدها فوق الجبل مرة أخرى •• وأصبح كل شىء جاهزا •• عدا

محمد سعيد الذى قال لى انه لن يتمكن حتى من ركوب السيارة قبل ان يستريح مدة لا تقل عن أربع ساعات •• وقررنا جميعا أن ننتظر وان نلغى من اذهاننا تماما فكرة اللحاق بالطائرة •• فلتذهب الطائرة الى الجحيم •• ان ما نمر به من تعب أقسى من الجحيم •• ورغم كل شيء فقد كنا نشعر جميعا بسعادة هائلة •• سعادة الانتهاء من مهمة صعبة ••

وبعد دقيقــة من استقرارنا فى أحد المنازل على الحدود التنزانية •• رحنا جميعا فى نوم عميق •• استيقظنا مع غروب الشمس لنجد العربة فى انتظارنا •• لتبدأ بنا رحلة اخرى طوال الليل •• وحتى منتصف اليوم التالى •• لنصل الى دار السلام ونلحق بطائرة أخرى •• كان الله فى عون ثوار موزمبيق •• فقد كانت هذه الرحلة المروعة واحدة من رحلاتهم اليومية البسيطة ••

••

المشهد رقم (١٤)

عندما تدق طبول التحرير فى تنزانيا

خلال الفترة التى أمضيتها فى تنزانيا .. كنت أشعر كثيرا انني لم أغادر مصر .. فرغم انها تبعد كثيرا عن مصر (حوالى ٦٠٠٠ ميل) ورغم اختلاف معظم عادات الناس وقيمهم هنـاك فان النمط السياسى العام الذى اختارته تنزانيا لشق طريقهـا بعد الاستقلال كان يذكرك دائما بكل ما يحدث فى مصر والمنطقة العربية فى عام ١٩٦٨ م .

وكمـا كانت تتعدد فى تنزانيا حركات التحرير .. وتتعدد مواقفها الصلبة مع حركة الشعوب الافريقية المتحضرة .. تتعدد فى داخلها .. الأجناس والحضارات واللغات المختلفة ..

ورغم أن عدد سكانها ــ حسب آخر احصاء ــ لا يزيد

على عشرين مليون •• الا أن هذا البلد الشاسع المساحة داخله حوالى ١٠٠ قبيلة ، و ١٠٠ لهجة وثلاثة أديان عالميـة ، وأربعة أجناس مختلفة •• وأكثر من لغة محلية وعالمية ••

وبشيء من التفصيل •• سنجد أن تنزانيا كغالبية الدول الافريقية تضم عددا هائلا من القبـائل التقليدية القديمـة •• أشهرها قبائل « الشاجو » وهىأكثر قبائل تنزانيا ذكاء ونشاطا•• ولذلك فأفرادها يحتلون معظم وظائف الحكومة الكبرى •• فرغم أن هـذه القبيلة هى أعرق قبائل افريقيا الا أن أفرادها يهتمون اهتماما بالغـا بتعليم أولادهم حتى آخر المسـتويات الجامعيـة ••

وتأتى بعد ذلك قبائل الماساى •• وهم من أشجع الأجناس الافريقية وأكثرهم قوة وبأسا و •• تخلفـا فى نفس الوقت •• لا يهتمون بمسألة التعليم وأقلهم استجابة لمـا حولهم من تيارات حضارية •• ويقال ـ فى بعض الدراسات ـ انهم ينحدرون من أصول فرعونية من قدماء المصريين الذين كانوا يهربون ويمضون جنوبا متخذين من شاطىء النيل مرشدا لهم فى رحلتهم نحـو عالمهم الجديد •• وهم أكثر الناس شجاعة فى الحرب •• ولا يتزوج الشاب منهم الا اذا لفتاته رأس أسد مذبوح بعد معركة « شرسة » مع هذا الأسد ••

وتأتى فى النهاية قبائل (الهجى هجى) الذين يسكنون

الجنوب الأوسط من تنزانيا •• وهى من أشرس قبائل افريقيا ، ولها شهرتها التاريخيــة فى مقاومة الاستعمار الألمـانى مقاومة اسطورية من خلال حركتهم التى عرفت فى تاريخ تنزانيا باسم حركة « المـاجى ماجى » ••

والى جانب الجنس الافريقى •• الذى انتشرت المسيحيه بين ٣ مليون منهم •• نجد العرب الذين يعتنقون الاســـلام وعددهم ٤ ملايين ثم الهنود ١٥٠ ألف ويعتنقون الهندوسية •• ثم عشرون ألفا من الأوربيين فضـلو البقاء فى تنزانيـا بعد رحيل الاستعمار ••

ولا يمكن لأى دارس أو زائر لتنزانيا أن يتجاهل ٤ ملايين عربى مسلم يعيشون فى هذه البلاد ••

وقد هاجر هؤلاء الى هذه البلاد وغيرها من بلاد الشرق العربى واستطاعوا أن يضيفوا لأهلها وحضـارتها الكثير •• ويكفى أن نعلم أنهم خلقوا هناك ــ بامتزاجهم مع الافريقيين ــ لغة جديدة هى اللغــة السواحلية وهى خليط من الكلمـات الافريقية والعربية وهذا سر ان معظم العرب الذين يسافرون الى شرق افريقيا يسهل عليهم استعمالها بعد شـهور قليلة من احتكاكهم بالناس هناك ••

وقد جاء العرب الى هذه البلاد من مسقط وحضرموت وعدن •• كتجـار يحملون معهم ثقافتهم وحضـارتهم ودينهم

الذى ما لبث ان انتشر بين الكثيرين من الافريقيين .. ولما اتسعت أعمالهم ومؤسساتهم التجارية كونوا عددا من الممالك والسلطنات لحماية وجودهم على الساحل الكبير الذى امتد من مومباسا شمالا الى موزمبيق جنوبا ..

ويكفى أن نعلم أن دار السلام عاصمة تنزانيا ليست سوى واحد من الاضافات الحضارية التى أهداها العرب لشرق افريقيا فى مجال المعمار .. ولذلك فان المبانى — فى دار السلام — وليس الطابع السياسى فقط — يشعرك دائما بأنك لم تفارق المنطقة العربية .. وخاصة فى زنزبار الجزيرة المواجهة لتنجانيقا والتى أصبحت تكون معها جمهورية تنزانيا ..

هذه الجزيرة التى حط عليها الرحالون العرب وقت ان كان المحيط الهندى والهادى بحورا من الظلمات المجهولة .. واستطاعت هذه الجزيرة بعد ذلك ان تقوم بدور حضارى .. فتربط عالم ودول المحيط الهندى بقلب افريقيا الموحشة .. قبل أن يطأها قدم أوربى واحد ..

وقد شهد تاريخ هذه الجزيرة دورتين حضاريتين كانت أولاهما فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد تحطمت هذه الدورة على أيدى البرتغاليين الذين كانوا يتحسسون طريقهم الى الشرق الأقصى .. فأحسن المسلمون لقاءهم ولكنهم غدروا بهم ثم قادوا سفنهم فى المحيط الهادى الى الشرق الأقصى

لينشروا بعد ذلك جوا من الارهــاب فى عالم المحيط الهندى احراقا وهدما واغتصابا وتدميرا للحضارات ..

وظل هذا الليل الثقيل جاثما على صــدر شرق افريقيا ، حتى استطاع عرب عمان (مسقط) أن يستعيدوا مراكزهم وأن يبدأوا دورة حضارية جديدة بلغت ذروتها فى القرن التاسع عشر على يد السلطان « سيد سعيد » من آل عمان .. وخلال هذه الفترة كان الكتاب الأوربيون يقولون عن الجزيرة :

ــ « اذا ما سمع صوت الناى فى زنزبار رقص عليــه الوطنيون فى قلب افريقيا » ..

وهذا هو سر الاهتزاز العنيف الذى أحدثته ثورة الجزيرة منذ سنوات قليلة.. كانت ثورة أصــدق ما يقال عنها انهــا كانت ثورة الفقراء ضد الأغنياء .. كل الأغنياء .. ســواء كان هؤلاء الأغنياء من العرب أو الافريقيين .. راح ضحيــة هذه الثورة أكثر من عشرة آلاف .. ولكنها انتهت بنتيجــة هائلة .. تتمثل فى اتحــادها مع تنجانيقا .. جارتهــا الكبرى ليصبحا دولة افريقية جديدة .. ولكنها ثورة ــ للأسف كانت على حساب الوجود الاسلامى فى الجزيرة

ورغم انها أصبحت الآن جزء من جزء من تنزانيا العلمانية .. الا أن هذه الجزيرة تحتفظ بطابعها الخــاص .. وتراثهــا الحضارى الاسلامى العربى .. وأهلها يمتازون بالجرأة .. وعدم

الخنوع .. فهم أحفاد مجموعة من المغامرين العرب . .ثم ان حكاياتهم .. وأساطيرهم تحمل أكثر من رواية عن بطولات أجدادهم ضد القراصنة البرتغاليين والألمان والانجليز ..

واذا اضفنا الى هذا ما تضيفه القيم الاسلامية للرجال من قوة فى قول الحق وما تفرضه عليهم من ضرورة مواجهة الفساد لاستطعنا أن نفهم سر الثورات المفاجئة التى تنشأ من حين لآخر فى هذه الجزيرة العجيبة .. وتثير هزات عنيفة لا فى تنزانيا وحدها .. بل فى افريقيا كلها .. ولذلك اشتهرت تنزانيا بأنها كانت تحتضن كل حركات التحرر التى كانت تعمل .. لتحرير موزمبيق وزامبيا .. وتعتبر نفسها احدى دول المواجهة الآن .. وتساند موزمبيق فى احتضان القوى المناوئة لنظام « بريتوريا » الحاكم فى جنوب افريقيا .. وما زالت تحتفظ بسمعتها الأولى التى تتردد بين دول شرق افريقيا .. عندما تدق طبول التحرير فى تنزانيا .. رقصت عليه قوى التحرر فى قلب افريقيا ..

***

افريقيا خارج الأدغال

فى نهاية هذا الكتاب •• لابد من كلمة •• نوضح فيها أن المشاهد السابقة •• كانت تدور معظمها •• فى ساحة افريقيا الأحراش •• ولكن حياة الأحراش •• تمثل وجها واحدا من العملة •• فهناك حيــاة أخرى فى المدن تمثل الوجــه الآخر لافريقيا •• وجه يجب أن تتعرف عليه •• حتى تكتمل الصورة فى ذهن القارىء •• ولا تبدو افريقيا فى نظره مجرد تلك الأدغال البدائية •• التى يراها من خــلال أفلام طرزان •• هناك حياة أخرى فى المدن •• يجب أن تراها •• وتحتك بها •• وهــذا ما فعلته ••

ولذلك كان لقائى بافريقيا •• مثيرا ورائعا ••

وكان احتكاكى بفكرها •• أكثر اثــارة •• وروعة ••

فمنذ اللحظــة الأولى التى وطئت فيهــا قــدماى أرض القارة ـــ وكان ذلك فى (داكار) عاصمة السنغال ـــ كان الخلاف

عنيفا بين ما كانت تعرضه الزوايا .. وبين ما أراه مجسدا أمامى .. وكان الخلاف شاملا .. وجذريا فى المظهر .. والجوهر على السواء ..

* فى داكار :

تلاشت تماما تلك الصورة الرقيقة المتواضعة التى رسمتها الأفلام الاستعمارية فى ذهنى عن المدن الافريقية أمام تلك العمارات الشاهقة .. والشوارع النظيفة .. والميادين الرائعة التى تملأ أحشاء العاصمة ..

* وفى أكرا :

تراجعت تلك المشاهد الافريقية التقليدية للمجموعات القبلية المتناحرة برقصاتها الوحشية .. وسهامها الساذجة .. لتحل محلها صورة شعب كامل ــ ٩ ملايين نسمة ــ ينتظم فى حزب واحد يناضل من أجل هدف واضح .. مستخدما أحدث الوسائل التكنيكية .. ليحتل مكانه بين الشعوب المتحضرة ..

تحت خط الاستواء .. يحلو للكتب الاستعمارية أن تروى للناس قصصا خيالية عن أكلة لحوم البشر ، رأيت أعظم تجربة افريقية لتنظيم الشباب التى يطلقون عليها « الجيمنير » .. وقد نجح هذا التنظيم واستطاع أن

يصل الى كل مدينة وكل قرية •• لدرجة ان الحكومة تعتمد عليه فى حكم البلاد •• وفى مقاومة الحركات الرجعية المناوئة ••

وفى لاجوس : عاصمة نيجيريا اختفت من ذهنى تماما صورة افريقيا التقليدية •• ففى تلك المدينـة الضخمـة التى تنافس عماراتها ناطحات نيويورك •• وتقترب كثافة سكانها من زحام القاهرة وتتفوق معاركها السياسية على مـا يحدث بين أحزاب روما •• فى هذه المدينة تتلاشى أمـامك الصورة القديمة •• ــ نفسك ــ من حدة ما تراه من تغير أمام سؤال بديهى :

ــ أين ذلك الذى تراه فى السينما ؟

القبائل •• والرقصـات ــ والسـهام •• ومظاهر التأخر والهمجية ••

وتسمع أكثر من مثقف ــ يقول لك : انه موجود •• فى المناطق الريفية •• فى الغابات •• فى الأحراش •• ولكن بصورة أخـرى ••

وعندما تذهب ــ بدافع الفضول ــ الى هـذه المناطق ، ترى القبائل حقا ، والرقصات والسهام ، ولكن بلا وحشـية ولا همجيـة ••

وانما هم اناس واعون مسالمون ، تماما كما يحدث عندما تزور احدى قرى الريف هنا ••

وهم يرقصون •• كما يرقص النوبيون فى كوم أمبو ••
ويمسكون بالسهام كما يمسك الصعايدة فى أسوان بالعصى فى رقصة التحطيب ••

حدث هذا فى كل القرى التى زرناها ••

وما من زائر يذهب هناك لأول مرة الا ويبدأ جولته وفى ذهنه ما سمعه عن « نيام نيام » و « الواق واق » •• وفى خياله صورة الرجل الأبيض وهو مغروس فى اناء كبير وسط ميـاء تغلى حولها النيران •• وشباب مسعور يتراقص حوله •• ولكنه فى النهاية •• يفاجأ دائما بالعكس ••

اناس طيبون يستقبلونه دائما بالترحاب ••

وعندما يتساءل اذن فأين تلك الصور البشعة ؟

يقال له :

ـ انها صورة بالغ فيها الاستعماريون •• والتقطتهـا السينما الغربية لتجسم تأخر القاره ولتبرر بقاءهم فيها وللأبد ••

وحتى فى تلك الصورة الوهمية التى رسمها الاستعماريون للرجل الافريقى الذى يعيش فى الغابة •• يصـارع الوحوش ويطاردها •• ويصطادها فى شجاعة نادرة •• صورة ـ أيضـا ـ أقرب الى الخيال ••

فالرجل الافريقى ـ الآن ـ لا يعيش داخل الغابة ••

وانما على أطرافها •• وهو يخاف ــ كأى انسان ــ من الاقتراب ويطاردها •• ويصطادها فى شجاعة نادرة •• صورة ــ أيضا ــ من منــاطق الحيوانات المفترســة •• وهو لا يحــاول مطلقا الدخول الى قلب الغابة •• الا عندما تدفعه الحاجة الى اصطياد بعض الحيوانات الصغيرة التى تعود على ذبحها وشوائها •• أو عندما يريد الحصــول على بعض أنواع الفواكه يلتقطهــا بالنهار ويسرع بها ــ خارج الأدغال ــ قبل أن يلحقه الظلام ••

ولم يدفع الافريقى الى دخول الغابة ــ بعد العصــور البدائية الأولى ــ سوى بعض المغامرين من البيض ، الذين جاءوا ببنادقهم ومعداتهم الحديثة لاصطياد الحيوانات المفترســة وبيعها بأرباح خيالية لحدائق الحيوان ••

فالرجل الافريقى ــ منذ اكتشــاف الزراعــة ــ يعيش وادعا ــ كأى ريفى ــ على أطراف الأدغال لا يجرؤ على الاقتراب منها الا فى ظروف اضطرارية ••

هذه هى الحقيقة العامة •• ســواء فى المدينة الافريقية •• أو فى القرية •• أو فى الأدغال ••

اذن •• فلم تعد افريقيا ــ كما تصورها الصحافة الغربية ــ مجرد أدغال موحشة •• يعربد فى أحشائها ذلك الصراع التقليدى الساذج بين الحيوان والانســان •• ولكنهــا أصبحت عالمــا جديدا •• يتفجر داخله ذلك الصراع الأبدى المرير بين التأخر والتقــدم ••

الفكر الافريقى

ولكن كيف يفكر هذا العالم الجديد ..

هل له فلسفة خاصة يمكن أن نطلق عليها « الفلسفة الافريقية » ؟

الواقع ان الاجابة العامة على هذا السؤال .. تقول نعم .. هناك فكر افريقى .. و .. أيديولوجية افريقية ..

ولكن .. اذا جسدنا الاجابة على الواقع « السياسى » و « الاجتماعى » للقارة .. فلن تأتى الاجابة بهذه السهولة التى نتصورها .. لعدة أسباب تاريخية وسياسية هادفة تتلخص فى :

*** أولا — اتساع القارة :**

فافريقيا تبلغ مساحتها مساحة أمريكا الشمالية وأوربا والهند مجتمعة وتحوى أكثر من ٤٦ دولة .. وتتكلم أكثر من ٢٠٠٠ لغة ويعيش عليها حوالى ٥٠٠ مليون من البشر .. فى ظروف مناخية مختلفة ..

*** ثانيا — اختلاف التاريخ**

وهذا الاختلاف حدث بسبب اتساع الرقعة .. وتنوع الحضارات والحركات ونظم الحكم التى نبتت على أرض

القارة •• وبالتالى نوع الأفكار والتقاليد التى تكون منها « الوعاء التاريخى » للقارة الافريقية •• وكلمة « تاريخ » هنا أعنى بها التاريخ القديم الذى سبق عصور الأستعمار ••

* ثالثا ـ تنوع الاستعمار :

فافريقيا لم يستعمرها بلد واحد •• فبالرغم من أن عصر الاستعمار الافريقى بدأ منذ خمسة قرون ببعض المغامرين والقراصنة من الاسبان والبرتغاليين ، الا انه ما ابث ان انهال على أراضيها بعد ذلك ألوان أخرى من الاستعمار البلجيكى والألمانى والفرنسى والانجليزى •• ولاشك ان اختلاف جنسية الاستعمار •• وتعدد النظم كان منبعا آخر من منابع اختلاف « وعاء » الفكر الافريقى ••

* رابعا ـ اختلاف الحكومات :

فافريقيا ـ بعد الاستقلال ـ لم تتول السلطة بها حكومة واحدة أو حكومتان كما حدث بالقارة الأمريكية مثلا •• وانما عدة حكومات ذات ايديولوجيات مختلفة •• ويرأس معظمها حكام تربوا فى مدارس سياسية مختلفة •• وبقدر ما يعطى هذا الخلاف من « حيوية » للفكر الافريقى المعاصر •• بقدر ما يفتت من وحدته •• ويشتت كيانه خاصة وأن « بعض » هذه الحكومات يرأسها حكام عسكريون لا يعبرون تعبيرا دقيقا

عن ارادة شعوبهم •• وبالتالى عن أفكارهم الحقيقية •• بقدر ما يعبرون عن ارادة وأفـكار بعض المصـالح والمؤسسات العسكرية المعاصرة •• أو بعض الدوائر الخارجية ••

※ خامسا ـ الاحتكاك العالمى :

فالقارة الافريقية ـ كأى مكان فى العالم ـ لا تعيش الآن منفصلة عن تأثيرات العالم الخارجى •• بفضـل تقدم وسـائل الاتصال الحديثة •• وهـذا العامل قد آزال تماما من قاموس الفكر العالمى « المعاصر » تلك النغمة الدارجة التى كانت تتناول بالدراسـة « الفكر الصينى » و « الفكر الهندى » « الفكر الأوربى » و •• كذلك « الفكر الافريقى » ••

وأصبحت هـذه الدراسـات تنحصر فقط فى المجـال « التاريخى » حيث كانت الحضارات منفصلة و « ذاتية » وبعيدة بحكم ندرة وسائل الاتصـال عن التأثيرات الخارجية •• ولذلك فما زالت هنـاك دراسات محددة فى « الفكر المصرى القديم » و « الفكر اليونانى القديم » ••

ولكنك لا تجد دراسة فى الفكر الروسى أو الفكر الأمريكى المعاصر •• الا وتجد بنفس الدراسـة ـ كلمة تأثير هـذا الفكر أو تأثره بالفكر العالمى ••

واذا كان عامل الاحتكاك العالمى •• يعتبر عاملا يزيد من

صعوبة تحديد الفكر الأوربى أو الأمريكى أو الروسى المعاصر ، فانه — بالنسبة لافريقيا عامل « أصعب » •• لانه بوجه عام — كقارة نامية — تسعى وراء التقدم •• تأخذ الآن وتتأثر بالحضارات المختلفة أكثر مما تعطى وتؤثر •• وهذا مما يزيد رصيدها من الفكر الخارجى •• ويعرقل من توحيده وتحديده فى الوقت ذاته ••

*** هكذا تفكر القارة :**

وقد يصدم هذا التحليل — رغم بداهته — أحلام بعض مفكرى القارة الذين ينادون بالوحدة الافريقية ••

ولكن ••

هذا التحليل — كأى تحليل علمى — يتناول تفسير الواقع « الافريقى » أكثر مما يتناول الآمال والأحلام •• وهو فى الوقت ذاته لا يقف موقفا معاديا أمام هواه تحديد ملامح « الفكر الافريقى الوحدوى » •• أن هذا يتوقف فى النهاية على مدى استجابة الشعوب الافريقية لهذا الفكر •• الذى ثبت بعد كل هذه السنوات أنه مجرد أمل يداعب أحلام بعض المفكرين ••

ورغم هذا •• فان العوامل الخمسة التى قد تعرقل بلورة الفكر الافريقى الواحد •• وتقف أمام أحلام الوحدة الافريقية

العاجلة .. هذه العوامل ذاتها .. قد تعثر بين ثناياها على مايبعث الأمل فى بلورة الفكر .. وفى تحقيق الأحلام الوحدوية ..

فوحدة الأرض الافريقية ..

ووحدة الفكر الافريقى القديم الناتج عن تأثر الشعوب الافريقية بحضارات ــ ما قبل الاستعمار ــ على الأقل بحكم الجيرة ..

ووحدة الوجود الاستعمارى .. كسابقة تاريخية متشابهة فى جميع بقاع القارة .. بغض النظر عن « هوية » هذا الاستعمار .. ومدة بقائه ..

ووحدة المشاكل التى تواجه حكومات تحكم دولا نامية تحاول أن تلحق بالركب بعد سنوات من الاستعمار الطويل ..

ثم وحدة التأثر بالعالم الخارجى ..

كل هذه المنابع التاريخية ..

و .. الروافد السياسية ..

تساعد فى تحديد بعض « ملامح » الفكر الافريقى .. خاصة اذا استطعنا تخليص هذا الفكر من شوائب الانحرفات الأيديولوجية لبعض الزعماء الافريقيين .. أمثال « الحبيب بورقيبة » وبوكاسو .. فانه يمكن ــ بعد ذلك ــ أن نجيب على هذا السؤال الصعب .. كيف تفكر افريقيا ؟

فنقـول :

ان افريقيا ــ بشكل عام ــ •• ينصب تفكيرها فى هــذه القوالب الرئيسية :

* كراهية شـديدة للاستعمار :

وقد تأخذ هذه الكراهية صورة سلبية لا شعورية تظهر واضحة فى تلك الاتجاهات الثقافية التى تهدف الى احياء التراث الافريقى القديم الذى حاول الاستعمار تدميره •• كما حدث فى السنغال بقيادة زعيمها السابق « ليوبولد سنجور » ••

وقد تأخذ صورة ايجابية شعورية تبدو فى تلك القرارات « الجادة » •• الاجتماعية التى تصدر ضد القوى الاستعمارية•• كتلك القرارات العنيفة التى تتخذها دائما منظمـة الوحـدة الافريقية المتعلقة بجنوب افريقيا ••

* شعور حـاد بالتخلف :

فافريقيا تشعر أن الاستعمار قد تمكن من وقف عقـارب التقدم بها خمسـة قرون كامـلة •• ولذلك نرى معظم الدول الافريقية ــ وحتى التى اختارت الطريق الرأسمالى ــ تلزم نفسها بخطة •• لتنمية مواردها ومضاعفة دخلها فى أقصر وقت ممكن•• وحتى يتحقق هـذا الهـدف فى وقت أسرع ، فهنـاك شـبه اتفاق على :

* ضرورة الاستعانة بالتكنيك الخارجى :

وذلك حتى تتمكن القارة أن تبدأ — قدر الامكان — من حيث انتهى الفكر والتكنيك العالمى .. وحتى يساعد هـذا التكنيك على ادارة عجلة التقدم الافريقى بأقصى سرعة ممكنة.. على شرط الا يمس هذا باستقلالها الداخلى أو الخارجى .. أو الانخلاع من جذورها وعلى أن يتم هذا فى أقصر فترة ممكنة باعداد جيش هائل من الجنود الافريقيين حتى تعتمد القارة على نفسها وتخلص استقلالهـا من أى مظهر من مظـاهر التبعية السياسية أو .. الاقتصادية التكنيكية ..

هذه هى معالم الفكر الافريقى بشكل عام ..

هكذا يفكر رجل الشارع الافريقى

ولكن كيف يفـكر ويعيش الرجـل الافريقى .. والمرأة الافريقية .. هل ما زالوا — كما كانت تصورهم الأفلام — مجرد أناس تابعين للرجل الأبيض .. أم أنهم بدأوا يفيقون من رقادهم الطويل .. خلال سنوات الاستعمار ..

كيف يعيش رجل الشارع الافريقى (الحديث) ..

لقد شغل هذا السؤال ذهنى منذ اللحظة الأولى التى وطأت

فيها قدماى السنغال .. وظللت أحاول تجميع عناصر الاجـابة عليه طوال رحلتى فى بلاد غرب وشرق افريقيا بوجه عام ..

وكلامى فى هذا المجال سينصب على رجل المدينة الافريقية الذى اتيح له أن يحتك بتيارات العصر الحديث .. وأن يمتص منها ما يريد وما لا يريد .. الرجل الذى دهمته حياة المدينة .. وما زالت « حياة الأحراش » تقبع فى أعماق لاشعوره ..

ورجل المدينـة يختلف الى حد كبير عن تلك الصـورة التقليدية التى نراها دائما فى الأفلام الأجنبية .. فانك ترى فى حياته مزيجا غريبـا من التقاليد الأوربية متعانقة فى تشـابك مثير مع التقاليد الافريقية القديمة .. وفى بعض الأحيان ترى حياته وقد تحولت الى صـورة مشـوهة من حياة الرجـل الأوربى .. وفى أحيان أخرى ستراه مرتدا الى تقاليد الأدغال رافضا كل تأثيرات المدينة ..

واذا ابتعدنا عن التفاصيل والاختلافات الفردية فسنجد أن رجل الشارع الافريقى يمتاز بعدة سمات « فكرية » عامة يمكننا تركيزها فيما يلى :

❊ احترام القوانين والمواعيد :

فالرجـل الافريقى شـديد الولع باحترام كل النظم التى تضعها الدولة .. وتستطيع أن تلاحظ هذا ــ للوهلة الأولى ــ

عندما تسير فى شوارع المدن •• فشارات المرور الحمراء تحظى باحترام يقترب الى حد التقديس ســواء من المشاة أو راكبى السـيارات ••

أذكر أننى حاولت ــ فى أحد شــوارع داكــار ــ عبور الطريق عندما كانت شارة المرور مضاءة بلون وردى ــ حسب النظــام الفرنسى ــ ففوجئت بسيدة افريقية تصرخ من ورائى وكأن كارثة على وشك أن تقع •• وحسبت أننى كدت أتعرض لخطر داهم •• ولكننى أكتشفت أن الذى تعرض للخطر ــ من وجهة نظر السيدة طبعا ــ هو نظام المرور ••

واحترامهم لشارات المرور لا يقتصر ــ فقط على الأماكن التى يقف بها عساكر المرور ، وانما يمتد حتى فى الأماكن النائية والشوارع الخالية من حركة السيارات واشارات عساكر المرور ترتفع كلها الى درجة الأوامر التى لا تقبل المناقشة ، ومع ذلك فان عساكر المرور هنــاك يعاملون الجمهور معاملة رقيقة جدا ، واذا أرادوا تسجيل مخالفــة فهم لا يفعــلون ذلك دون علم السائق ، بل يذهبون اليه ــ فى أدب شديد ويفهمونه سـبب المخالفة و •• يحصــلونها منه فى الشارع •• الا اذا كان السائق مفلسا ••

وتنعكس صورة احترام القانون على حيــاة المحاكم •• فقليلا ما تنظر بهذه المحاكم قضايا سرقة أو نشل •• فمعظمها

قضايا مدنية تختص بالمشاكل التى تحدث خلال المعاملات التجارية ..

ويمتد احترامهم للقانون الى احترامهم للكلمة ، للميعاد ، فالافريقى لا يعرف الكذب .. وهو يعتبر الكذبة مجرد نكتة سخيفة لا يقدم عليها سوى انسان سخيف .. ولهذا فان الافريقى (العادى) يصدق كل ما يقال .. وقد استغل الاسرائيليون هذه المسألة وأشاعوا بين أصدقائهم الافريقيين فى جلساتهم الخاصة .. ان اسرائيل « دولة افريقية !! » وأن مصر دولة آسيوية تقع شمال السعودية !! وأن العرب هم أصحاب تجارة العبيد فى غرب افريقيا .. وللأسف فقد صدق الكثيرون هذه الكذبة المغرضة حتى تعرفوا بالمصريين وعرفوا منهم الحقيقة ..

وكما يحترم الافريقى الكلمة — فهو يحترم — بشكل جاد المواعيد .. وقد لاحظت ان الافريقى يذهب دائما قبل الميعاد حتى يثبت انه أكثر تحضرا ومدنية من الرجل الأوربى .. فالرجل هو المثل الأعلى لكل افريقى .. اذا استبعدنا .. كراهيته السياسية له .. كرجل مستعمر .. وفى رأيى ان احترام الافريقيين للقوانين والمواعيد ليس واردا عليهم من الخارج .. ففى أعماق تقاليدهم القبلية ما هو أكثر من احترام النظم والقوانين ..

*** قدسية العمل .. وقدسية اللعب :**

فالنظرة السائدة عن الرجل الافريقى انه مجرد انسان راقص .. تشده (دقات الطبول) عن أى عمل جاد .. نظرة سطحية خاطئة .. واذا زرت أحد المكاتب الحكومية فى غانا أو السنغال أو الكونغو برازافيل .. فسيدهشك ذلك الهدوء الذى يخيم على المكاتب .. وذلك (الانهماك) الذى يسيطر على الموظفين السود لقد أخذوا فعلا عن الأوربيين هـذه العادة الحسنة ، خاصة أن مواعيد العمل هناك محدودة وعلى فترتين :

* صباحية .. من الساعة السابعة حتى الثانية عشرة ..

* ومسائية .. من الساعة الخامسة حتى السابعة ..

وذلك لتفادى حرارة الجو والرطوبة ..

أما بعد العمل .. فالافريقى دائما مرتبط بميعاد مع خطيبته أو صديقته أو زوجته ..

وكذلك الحال بالنسبة الموظفة الافريقية .. وفى بعض الأحيان يكون الجميع على موعد الى حفل راقص ــ خاصة ليلة الأحد ــ التى تخلو فيها شوارع مدن افريقيا .. فالكل مرتبط بمواعيد .. لحفلات خاصة أو عامة ..

وكذلك الحال بالنسبة للموظفة الافريقية .. وفى بعض وهكذا ينهمك الجميع ليلة الأحد ــ التى تخلو فيها شوارع

مدن افريقيا — وحتى الصباح — على أنغام رقصات (الطمطم) السنغالية أو رقصة (البارلوجو) الغانية .. أو رقصة (الهايلاف) فى نيجيريا .. وكما يحترم الافريقيون ساعات العمل .. فهم — كذلك — شديدوا الحرص على احترام مواعيد اللعب والرقص ..

* سهولة العلاقات بين الجنسين :

والعلاقة بين الشبان والفتيات فى المدينة تمضى بغير تلك الحواجز التى نعرفها فى بلادنا وزوار الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط قد يرون فى هذا نوعا من (التحلل) ، ولكن النظرة الموضوعية لهذه الظاهرة تجعل الزائر فى نهاية الرحلة يتراجع عن نظرته « الآثمة » لهذه العلاقات .. فالمسألة مجرد تقاليد موروثة .. فكما أن من تقاليدنا مثلا عدم السماح للفتاة بحرية الاختلاط .. وحرية الخروج مع صديقها .. وبضرورة المحافظة على بكارتها حتى ليلة الدخلة .. فان من تقاليدهم هناك السماح لها — منذ الطفولة — بالاختلاط .. وبالخروج مع أصدقائها فى الحفلات العامة والخاصة .. وبممارسة حريتها العاطفية والجنسية بنفس القدر المتاح للرجل ..

زارلى ذات ليلة صديق نيجيرى فى فندق « الأمباسدور » باكرا وأخذ — بعد حديث السياسة — يعدد لى مغامراته العاطفية فى أكرا .. ولما كنت أعلم أنه خاطب فتاة نيجيرية سألته — من

قبيل الفضول ــ الا يضــايق هذا خطيبته النيجيرية اذا علمت فرد على فى دهشة :

ــ لمــاذا تتضايق ، انها تفعل نفس الشىء الآن .. فى لاجوس !

وعندما أثارتنى اجابته سألته :

ــ وألا يضايقك أنت ذلك ؟

قــال :

ــ ان من حقها أن تمارس حريتها ..

وعدت أسأله وقد فاضت بى الدهشة :

ــ اذن فما الذى يضايقك ؟

قال فى هدوء :

ــ ان أعود وأجدها حامل من غيرى ..

لا تدهش ::

انها تقاليدهم هناك .. تقاليد « الأدغال » التى ما زالت قابعة فى أعماق الافريقى .. حتى وهو فى مدينة .. بها ناطحات سحاب .. مثل لاجوس .. أو أكرا .. أو داكار ..

وقد يحق لنا أن ننظر لها نظرة غرابــة لأنها مختلفــة عن تقاليدنا .. ولكن لا يحق أن تنظر لها نظرة (اشمئزاز) .. والا فماذا تكون نظرتنا لساكن الاسكيمو الذى يصر على تقديم

زوجته لك فى فراشــك عندما يستضيفك ولو لليلة واحدة ••
اظهارا لحبه لك •• وحسن كرمه ••

* عقــدة اللــون :

ان السـنوات الطويلة التى أمضــاها الرجل الأبيض فى افريقيا •• لم يكن الرجل الأسود يرى خلالها الا أعنف صــور الاستغلال والاذلال •• هذه السنوات استطاعت أن تدمر الثقة بين الطرفين وتجعلها قائمة على نوع من الريبة والحذر ••

ذهبنا ذات يوم الى ضاحية احدى العواصم الافريقيــة الكبرى « لاجوس » •• وحاولنا تصــوير احدى الرقصــات التقليدية •• العريقة •• كان كل شىء يسير بشكل عادى حتى شاهد الجالسون الكاميرا ترتفع فى يد زميلى محمد ســعيد ، وفجــأة تغير كل شىء حولنا •• حاولوا الاعتداء على زميــلى بعنف •• ثم حاولوا خطف الكاميرا •• وعنــدما احتمى محمد ســعيد بالسيارة حاصروها ورفضــوا أن تبارح عربتنا مكان (الحادث) حتى يحصلوا على الفيلم ••

وعبثا حاولت أن أفهمهم انه لم يلتقط صــورة واحدة •• ولكن بلا جدوى ، واستمر الحصــار أكثر من ساعة •• وكادت المسألة تتطور الى معركة دامية لو لم يمر علينا عمــدة الحى وينقذنا من أيديهم ••

وعندما استفسرت عن سر غضبهم •• اكتشفت انها عقدة قديمة •• انهم لا يسمحون هنا لأى صحفى (أبيض) بالعمل •• لمـــاذا ؟

منذ سنوات حضر الى نفس المكان صحفى أمريكى ومعه كاميرا •• وسمحوا له بالتقاط كل الصـــور التى طلبها •• وبعد شهور فوجئوا بصورهم فى المجلة مكتوب تحتها (القرود السوداء فى افريقيا) •• وهـــذه الحادثة ليست سوى مثل بسيط على جو الريبة والشك الذى خلفه الرجل الأبيض داخل أعمـــاق أخونا الافريقى الأسمر ••

* الوفـــاء للتقـــاليد :

وعدم ثقتهم فى الرجل الأبيض •• وما عانوه من اضطهاد وكذب ونفاق وسرقـــة واستغلال تجعلهم شديدى التمســـك بتقاليدهم (الأكثر) سماحة والأكثر نقاء •• ولذلك نلاحظ عامة انهم قليلوا الامتصاص للتقاليد البيضاء ••

وتلحظ هذا بشكل واضح عندما يقام مهرجان فى المدينة للاحتفال بذكرى قديمة •• فتجد كل من فى المدينة •• وحتى من تعلم منهم فى أرقى جامعات انجلترا أو أمريكا •• ينخرط مع الناس البسطاء فى احياء هذا التقليد سواء عن اقتناع أو غير اقتناع •• نراه فجأة وقد اندفع وراء (زنجيته) تاركا وراء

ظهره كل ما فى ذهنه من علم وثقافــة •• بعد أن أصبح جزءا صغيرا من عقل « الأحراش » الجماعى •• يرقص فى عنف •• ويصرخ فى وحشية وكأنما انبعثت من أعماقه شياطين الأدغــال بكل ما تحوى فى أحشائها من تقاليد وصرخات مقدســة لأرواح الأســلاف ••

وقد رأيت هــذا كله فى مهرجــان (ملك لاجوس) كان الاحتفال بذكرى وفاة ملك لاجوس •• وتنصيب ملك جديد •• ومع أن هذا الملك •• مجرد صــورة شرفية للمدينة التى يحكمها مجلس مدينة على أحدث النظم المتحضرة •• ومع أن تقاليــد تنصيب هــذا الملك لا تخضع لأى منطق علمى •• ومع أن الاحتفال فى المدينة يعطل المرور •• ولا يصلح الاحتفال بها الا فى الغابات •• الا انك تجد المدينة ــ فجأة ــ وقد اختفت وراء جانب من التقاليد القبلية العتيقة •• يباركها كل الناس من رئيس الجمهورية حتى آخر مواطن فى المدينة •• حتى انك تحس أن حياة الأدغال قد انتقلت الى المدينــة فى هذا اليوم •• وهم سعداء بهذا •• فمن هذه الأدغال جاءوا •• والى حماتها تحن قلوبهم •• ولا ضرر فى أن تنتقل هذه التقاليد من حين لآخر الى مدينتهم الكبيرة حتى لو تعطل كل شىء فيها ••

ولمــاذا نذهب بعيدا •• أما زلنا ــ نحن ــ حتى الآن ــ نحتفل بوفاء النيل فى مصر بنفس الطريقة التى كان يحتفل بهــا

أجدادنا منذ ٥٠٠٠ سنة وعلى كل فليس هـذا بغريب هنـا أو هناك فكلنا فى الحنين الى القديم افريقيون ..

« الكسـل والحر الشـديد »

بعد ذلك لا نستطيع أن نتجاهل هـذا الطابع الذى يكسو حياة الناس هناك ـ الكسل وعدم الرغبة فى العمل .. أو بمعنى أدق عدم القدرة على مواصلة العمل مدة طويلة ..

فالرجل الأوربى دائم الاتهام للرجل الافريقى بالتكاسـل فى العمل .. انه يقول عنه دائمـا انه ليست لديه الرغبـة فى العمل .. انه مازال يميل الى حياة الأدغال .. والى التكاسل فى ظلال الأشجار ..

وظاهرة الكسل ظاهرة صحيحة .. ولكن الاتهام خاطىء وظالم ..

فالرجل الافريقى ـ فعلا ـ لديه رغبة شديدة فى العمـل خاصة فى هذه الفترة التى تحمل فيها وحده مسئولية اعـادة بناء بلاده ..

ولكنه لأسباب خارجة عن ارادته (غير قادر) على مواصلة العمل لمدة طويلة كما يحدث فى منطقة مثل حوض البحر المتوسط أو فى أوربا ..

وهو فى ذلك معذور تماما .. فحرارة الجو الدائمة .. المشبعة بالرطوبة تجعل الانسان هناك فى حالة (دوخان) مستمر

وميل دائم الى الراحة والاسترخاء ٠٠ وكل الذين يزورون هذه المناطق لا يستمر نشـاطهم هنـاك سـوى أسابيع قليـلة ٠٠ ويصبحون بعدها منافسين خطرين (للكسل الافريقى) المزعوم بل ان حرارة الجو تجعل الانسان يقدم على أشياء لم يكن ليقدم عليها فى أى مكان فى العالم ٠٠

كنت فى زيارة لاحـدى القرى ٠٠ ورأيت فتـاة تحمل صفيحة مياه من عين قريبة ، وعندما اقتربت من باب منزلها فوجئت بها تخلع ملابسها وتستحم فى الشارع ٠٠ و ٠٠ لم يكن الوقت ليـلا ٠٠

هل تدرون ماذا كان شعورى ساعتها وأنا غارق فى بحر من العرق ومن الزهق من شـدة الحرارة ٠٠ لقد كان شعورى أن أخلع أنا الآخر ملابسى واستحم ــ مثلها ــ أمام كل الناس ٠٠ وفى نفس المكان ٠٠

فحرارة الجو هناك لا تؤثر فقط على اجسـامهم وانما تؤثر ــ لشدتها ــ على تفكيرهم وعقولهم ٠٠

ويرى بعض المفكرين ان افريقيا لن تتقدم ــ اطـلاقا ــ الا اذا توصل أبناؤها لطريقة رخيصة لتكييف مناخها الحار ٠٠

وهم يبنون هذا الكلام على أساس حقيقة تاريخية تقول ٠٠ ان أوربا لم تتقدم هذا التقدم الهائل ، الا بعد أن توصل سكانها من ايجاد وسائل التكييف الحديثة ٠٠ لمواجهة برودة الجو

وهم يؤكدون كلامهم .. بحقيقة أخرى .. وهى أن أوربا ـ أيام القرون الوسطى ـ كان سكانها مجرد رعاة مرتعشين .. ينكمشون ليلا ونهارا أمام شعلات ساذجة من النيران الدائمة ..

فهل تتوصل افريقيا ـ يوما ما ـ الى طريقة لتكييف مناخها ؟

***

المهم .. أنه باكتمال الرؤية للقارة الافريقية .. أحراشا وأدغالا .. ومدنا .. وجامعات .. يمكننا أن نقف على حقيقة كانت غائبة .. عن وجداننا .. وأفكارنا .. التى شكلتها فى أعماقنا .. الكتب الاستعمارية عن القارة « السوداء » .. ان افريقيا اليوم ..

غير افريقيا الأمس ..

فلم تعد قارتنا السمراء اليوم مجرد أحراش .. يطحن احشاءها ذلك الصراع البدائى الساذج بين الحيوان والانسان ولكنها أصبحت عالم جديد يفجر أعماقه آلام قديمة مكبوتة نحو التقدم .. ويداعب أحلامه أشواق طاغية .. نحو اللحاق بالركب .. بعد قرون طويلة من الظلام والقهر والاستعباد ..

• لقطـات من الرحلـة



ثوار أنجولا فى أحد المواقع الأسرية (قبل الاستقلال)



فى افريقيا أيضا .. ملكات جمال



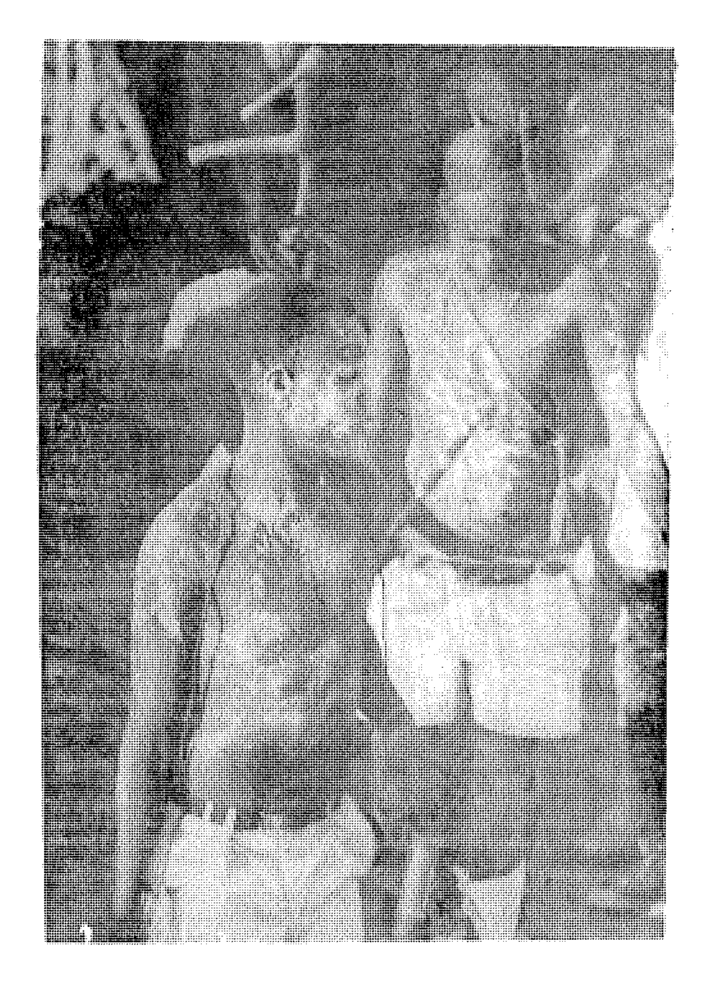
افريقيا أرض خصبة ((للتنصير)) السياسى



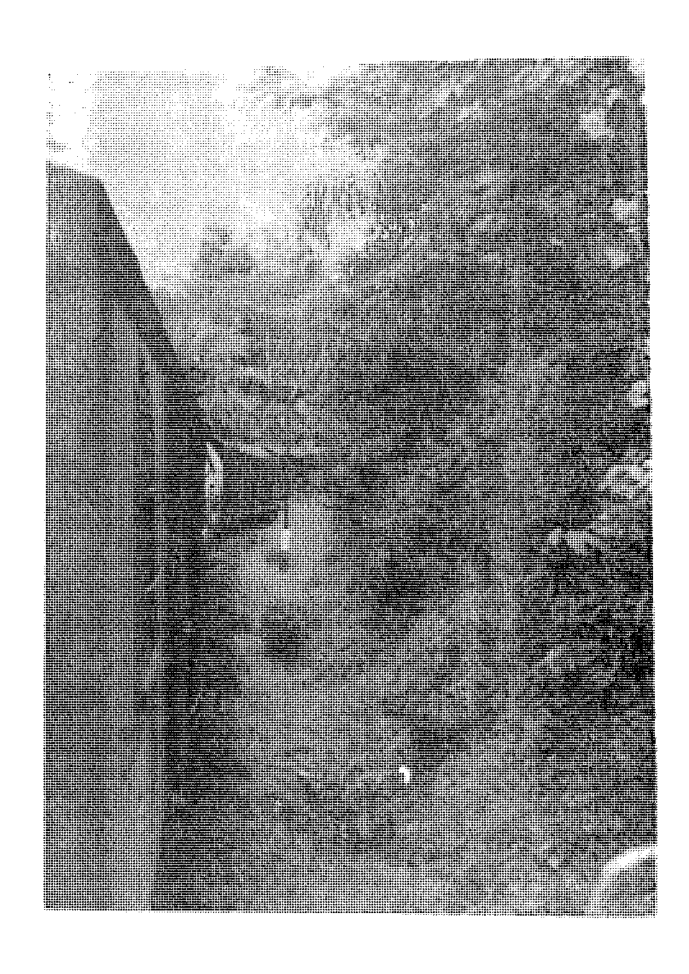
عراة جنوب السودان .. بعد اجبارهم على ستر اجسادهم



المسلمون فى غرب افريقيا .. مجرد « أزياء » .. دون فهم الاسلام



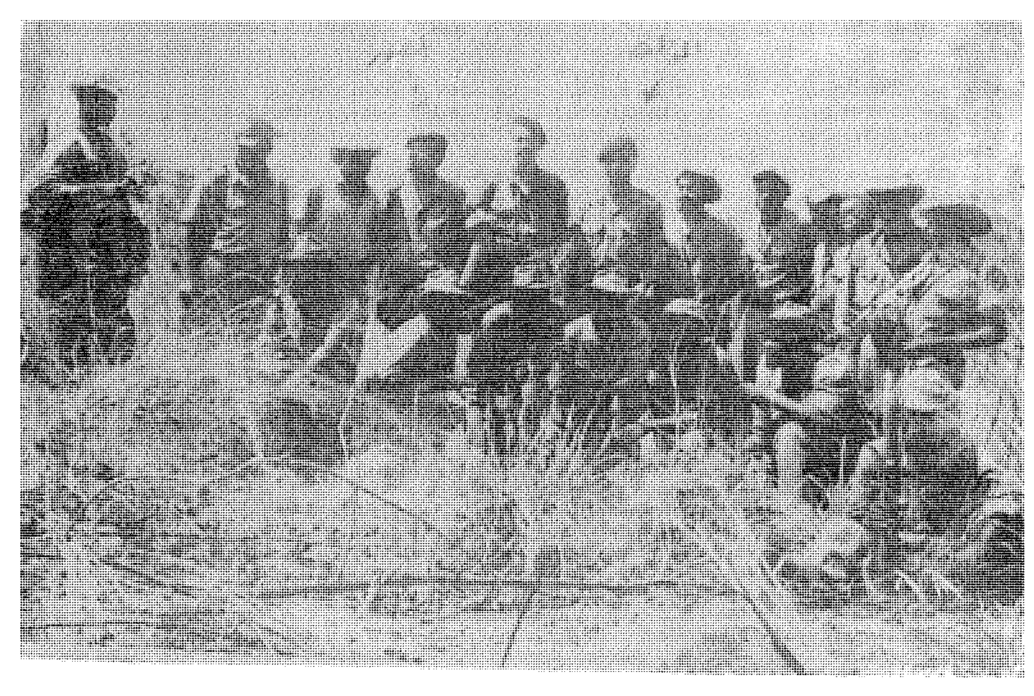
فى جنوب السودان .. يحمون أجسـادهم .. بالرماد .. من الناموس القاتل



فى هذا القطار هربت من البوليس .. فكانت أجمل رحلة قطار فى العالم



المؤلف بين ثوار موزمبيق قبل تحريرها عام ٦٨



مؤلف الكتاب (حامد سليمان) ومحمد سعيد الصمود بين ثوار انجولا
(قبل الاستقلال)



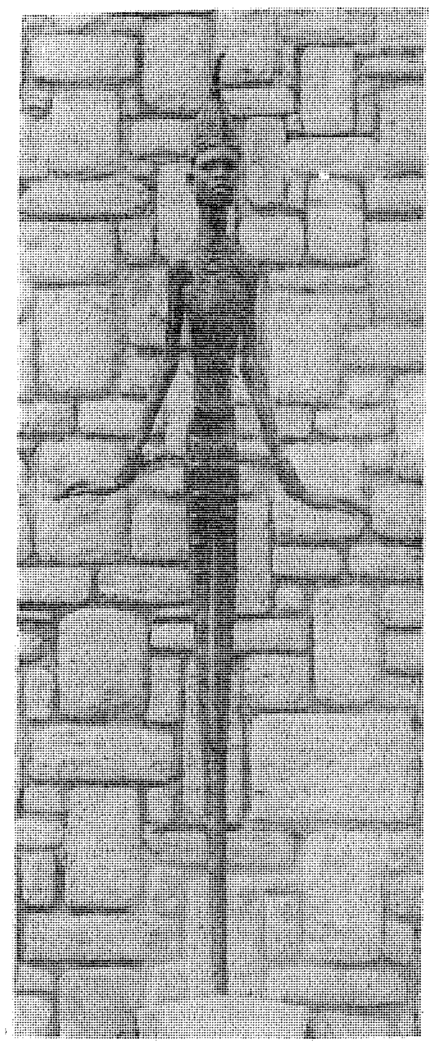
مهرجانات نيجيريا .. اللعب بالسيوف بدلا من العصى



من هذه المنابع الصغيرة .. يتكون نهر النيل



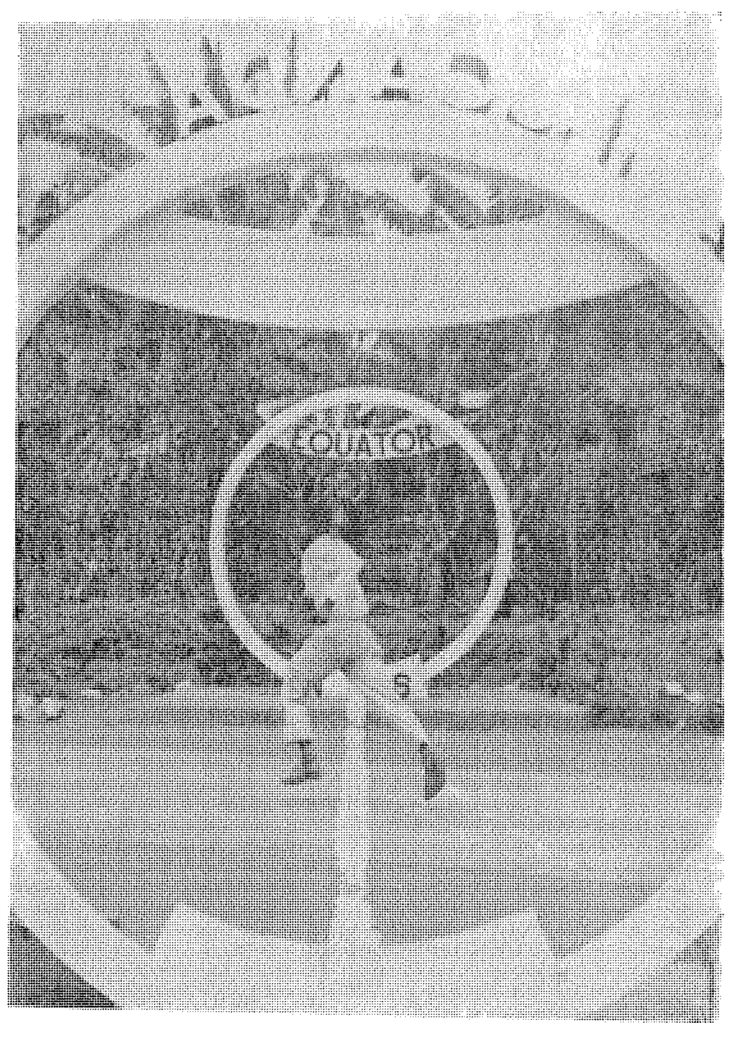
السفور (والتفرنج) كان أسهل بين نساء أفريقيا •• منه فى
الشرق العربى



من الخشب الأبانوس .. استطاع الفنان الافريقى .. أن يشكل
أبدع التماثيل



التدريب فى أحد المواقع السرية بانجولا .. قبل الانطلاق للتحرير



هذا الرجل نصفه فى شمال الكرة الارضية .. ونصفه فى جنوبها ..
انه يعبر خط الاستواء



أحد المنابع الرئيسية لبحيرة فيكتوريا .. ومنها يبدأ النيل
العظيم رحلته الخالدة



أحد أحفاد جنود الغزو المصرى لأوغندا أيام اسماعيل باشا ..
لم تبق له سوى الذكريات .. و .. الطربوش



الانطلاق نحو التحرير بعد التدريب فى أحد المواقع بموزمبيق ..
قبل الاستقلال



لقاء المؤلف مع ملك الشلوك (في الوسط) ومن وراءه حاشيته



المؤلف .. في الطريق الى موزمبيق .. في قارب من جذع شجرة



وكان على المؤلف ـ مشار اليه بالسهم ـ قبل دخوله أنجولا .. أن يرتدى الزى العسكرى ويتدرب على السلاح

الفهـرس

رقم الايداع ١٩١٥/١٩٩١

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 2667 — 5



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب